# أمجد توفيق

# الظلال الطويلة



رواية

# الظلال الطويلة

رواية

## أمجد توفيق

## مقدمــة :

# نغمـات ترحيـب الأسلحـة

دراسة في رواية الظلال الطويلة
لأمجــد توفيـــق

## د . خالـد علي مصطفى

( هلُمَّ ، فبعدُ ما لمحَ المجوسُ الكوكبَ الوهّاج تُبْسَط نحوه الأيدي ،
ولا ملأتْ حراءَ وصبحَهُ الآياتٌ والسُّوَرٌ .
هلمَّ ، فما يَزال زُيوسُ يصبغ قمَّةَ الجَبَل
بخمْرته ، ويرسلُ ألفَ نَسْرٍ نَزَّ من أحداقها الشَّرَرٌ
لتخطفَ من يُدَيرُ الخمرَ ، يحمل أكؤُسَ الصهباءِ والعَسَلِ
هلمَّ نزورُ آلهةَ البحيرةِ ، ثمَّ نرفعُها لتسكنَ قمةَ الجَبل ) .

**بدر شاكر السيّاب**

**١. إشارات انطباعيـــة :**

قد يذهب فريقٌ من قُرّاءِ رواية أمجد توفيق ( الظلال الطويلة ) إلى أنها تدينٍ الاحتلال الاميركي للعراق ، وتدين عواقبَه ،والأطراف التي ركبتْ موجتَه تصريحاً أو تلميحاً . وقد يذهبُ فريقٌ آخرُ إلى أنِ الروايةَ تَدين ، أيضاً ، الأوضاعَ التي كانت سائدةً قبل الاحتلال وأدت إليه طوعاً أو كرهاً ..

وسواءٌ أكانت وجهةُ النظر صادرة عن هذا الفريق أم ذاك ، فإن الرواية . بوصفها أثراً أدبياً سردياً . يجب أن تنهض بنفسها ، في خاتمة المطاف . ذلك أن جميع الآراء التي تنصّب على قصد الرواية ، وكذلك رأيُ الكاتب في ، المدخل ، الذي تصدّرها ، تدخل في باب . السياق . ولا تدخلُ في باب . النصّ . .

إن الروايةَ ، أيةُ رواية ، إذا لم تكن علاماتها الدالة ، من عناصرٍ وتقنيات ، مُشعّة بمغزاها ، من خلال بلاغتها الخاصة ، لا تعدو أن تكون وثيقةً من وثائق علَم النفس أو الاجتماع أو التاريخ . وفي هذه الحال ، يجدر بنا أن نحيلها إلى العلم

الذي يمكنُ أن تتدرج فيه . هذا لا يعني أن عملية العزل بين النص وسياقه توجب . القطيعة المعرفية . بل يعني أن الاحالةإلى السياق مرهون بقدرة العمل الأدبي نفسه، بعد أن يكون السياق قد تحوّل من مادة . غُفْل . إلى صورة جمالية أخرى تستبطَنُه وتدلّ عليه ، في آنٍ واحد .

من هذاَ البابِ ، أدخل إلى ( الظلال الطويلة ) فاحصاً أدبيتَها السردية ، وأمداءَها الفنية ، ما ظَهَرَ منها وما بطن . ولكن أجيز لنفسي ، قبل ذلك ، أن أبينَ ما تركته في نفسي من أثر . فأنا ، قبل كل شئ ، قارئٌ يُعْجَبُ ، أحياناً، بما يقرَأ ، فيدفع به الاعجابِ إلى مطاردة الصفحات حتى الجملة الأخيرة من النص المكتوب ؛ وينفر ، أحياناً أخرى ، مما يقرأ ، فيشيح بوجهه عنه ، ثم يرمي به إلى أقرب رفٍّ أو زاوية .

لقد قرأت الرواية مرتين : مرةً للمتعة الفنية الخالصة ، ومرةً لتقصي أسباب هذه المتعة ، بعيداً هن الهزّة الأولى التي لا يلوح صدقُها إلا باختبارها في إعادة القراءة . وفي كلتا الحالتين حافظت الهزّة الجمالية على ذبذباتها ، على الرغم من تحكيم . العقل . وهو يتقصى أسبابها في المرة الثانية .

أحسست ، أيضاً ، أثناء القراءتين ، أن أمجد توفيق . وهذه مسألة ظنية . كان مندفعاً في حماسة متسارعة وهو يُسَودُ صفحاتها أو يبيضُها . حماسة مَنْ هو في اللهب تعبيراً عن اللهب نفسه . ربماَ لهذا السبب انتقلَت عدوى . اللهب . إليّ ، بارتفاع مقياس درجة الحرارة ، وتخطيط نبض القلب . وفي تقديري أن أيّ عمل أدبي لا يُعدي قارئه على هذا النحو ، قليلا أو كثيراً ، لن يكون له موقعٌ خاصٌ في النفس .

وفي هذا الصدد أقول : إن العمل الأدبي ليس حيادياً ؛ فهو مثقل بالعواطف والانفعالات والأفكار التي تدل على صاحبها ، أو على ما يريده منها صاحبها ، وفي هذه الحال يجد القارئ نفسه مجبراً على أن يتخذ ، هو الآخر ، موقفاً منها ، رفضاً ، أو قبولاً ، نقاشاً ، أو تأملاً . أما . القارئ الحيادي . فليس إلاّ خرافةً أدبية ، ككثير من الخرافات الأدبية التي يجب أن تحال إلى . علم الأساطير .

بعد هذه الاشارات الانطباعية ، الحارّة ، أحاول تحكيم . العقل . البارد في رواية مشحونة ، حدَّ الانفجار ، بالقضبان الملتهبة .

## ٢ـ التوازي والتقاطـع :

يقوم بناء الرواية ، في صورته الكلية ، على خطّين متوازيين متباعدين ، أول الأمر ؛ ثم ، بعد أن تتعاقب أحداث الخطين ، كلاً على حدة ، ردحاً من الزمن ، يلتقيان في بؤرة حادة ، ليبتعدا من جديدٍ في اتجاهينِ متعاكسين ، مع نهاية الرواية .

ويمكن القول ، أيضاً ، إن الرواية مبنيةٌ من خطين متقاطعين ، بحيث أصبحت نقطة التقاطع ( وهي البؤرة الحادة ) قمة السردِ ، ليبدأ بعدها . الحدث المتهاوي . إذا جازٍ لنا أن نستعمل مصطلحاً مسرحياً . بالهبوط في إتجاهين متعاكسين ، إيذاناً بانتهاء الرواية .

وعلينا أن نأخذ بنظر الاعتبار ، أن كل خط يجهل ما يجري للخط الآخرِ ، قبل نقطة التقاطع . أما ما بعدها ، فإن . التعرف . وهو مصطلح مسرحي ، أيضاً ، هو الذي يتكفل بتقديم أحدهما إلى الآخر ، ومن ثم يكون سبباً في افتراقهما ، بألوان فاقعة هي غير الألوان الباهتة التي كانا عليها .

قد يكون هذا الكلام ضرباً من الطلاسم التي تحتاج إلى فك رموزها ، فأقول :
إن الخط الأول يتمثل بما يجري للشخصية النسائية الأولى في الرواية ( انتصار وعصابتها ) بعد احتلال بغداد ، وكيف انتقلت بها الحال من قاع المدينة المظلم المتفسخ ، حين كانت تمارس البغاء طلباً للعيش الذليل ، إلى سطح المدينة المتألق بالنفجارات واللصوصية والقتل .

لقد سولت ( الخاتون انتصار ) لنفسها أن تسطو على أحد البنوك ، في أيام الانهيار الأولى وما سادها من فوضى زينت كل حرام وقبيح ، وتسرق منه الآلاف المؤلفة من الدولارات ( الآلهة الرأسمالية التي تحنو لها الجباه ذليلة مسترحمة !! ) وبعد هذا الانتصار الساحق الذي حققته ( الخاتون انتصار ) ، تبتاع لها قصراً عامراً في أرقى أحياء بغداد ( المنصور ) ، بدلاً من الخربة التي كانت تسكنها في بعض أحياء شارع الرشيد المنزوية القديمة المتهالكة .

أما الخط الثاني ، فيتمثل بالشخصية الرجالية الأولى ( بشّار ومن معه من أهل وأصدقاء ، وما يحيط به من اغراءات استخبارية ) .

تتضح لنا معالم هذه الشخصية وهي في . باريس . : لقد ترك بشار وظيفته الدبلوماسية في السفارة ، وآثر الالتحاق ب (المعارضة ! ) إنقاذاً لحياته مما يحاك له في وطنه ، ونزولاً تحت ضغوط المخابرات الأميركية التي نبهته على ما ينتظره من مصير أسود . ومن خلال ما تعرضه لنا ذاكرته المثقلة ، يتبين لنا ما حاق به

من تحولات حادة ، قبل أن يعود إلى الوطن بعد الاحتلال :
كانت مبدئيته ، وصراحته ، وقدرته على تشخيص الخلل سبباً في نقله من وظيفته ( مدير عام في بغداد ) إلى باريس . وبعد أن قطع شوطاً في موقعه الجديد ، اتضح له أن دبلوماسية الدبلوماسيين ، وحزبية الحزبيين ، دأبت على تعزيز مواقعها ونفوذها واستثمار امتيازاتها على حساب واجباتها .

كانت هذه الحال مخالفة لأخلاقه ومبدئيته . استغلت المخابرات الأميركية نزعته المثالية هذه ، ووضعته بين أمرين كلاهما مُرٌ : الالتحاق بالمعارضة ، أو المصير الأسود الذي ينتظره ، إنْ هو عاد إلى بغداد ، بناءً على دعوة رسمية ستصل إليه منها .

آثر بشار ( المر ) الأول ؛ نفض يديه من عمله الرسمي ، والتحق بعمله الجديد تحت لافتة ( المعارضة العراقية ) بعد أن تهيأت له موارد ( العيش الكريم !) وسبل ( الحياة الآمنة ) . حدث كل هذا قبل احتلال العراق .

أما نقطة تقاطع الخطين الحادة ، فتتمثل بالطريقة الكوميدية التي أجبرت بشاراً ، حين عاد إلى بغداد ، بعد الاحتلال ، شوقا إلى الدار والديار ( بتشديد الياء ) بالحاح من زوجته ، أن يتصل ب ( الخاتون انتصار ) ؛ علّها تعمل على انقاذ ابنته أمل ( ١٣ عاماً ) ، التي اختطفتها إحدى عصابات ( العهد الجديد ) وهنا تتشابك الأحداث وتتسارع على نحو غير متوقع .

ليس هدفي في تقديم خلاصة لعقدة الرواية ، بل تبيان ما آلت إليه نقطة التقاطع الحادة بين الخطين ( استعانة بشار بانتصار ! ) : إلقاء القبض على بشار في اللحظة التي كان يتوقع فيها استرداد ابنته . انتقاله من سجن إلى سجن . اصابته بالأمراض المتنوعة وتكسّر أضلاعه . اشرافه على حافة الموت . رجوع طفلته إلى البيت بعد تهشم احدى ساقيها . شهامة ( الخاتون انتصار !! ) التي دفعت بها إلى انقاذ بشار من محنته ، بعد أن وجدت لها وضعا مناسباً مع جنود الاحتلال . أشير هنا ، أيضاً ، إلى أن نقطة التقاطع الحادة أفضت إلى اعتقال ( انتصار خاتون ) ، غير أن عصابتها عملت على انقاذها بحيلة ( ذكية ) ؛ إذ استطاعت أن تخطف جنديين من جنود الاحتلال لتبادل بهما سيدتهم ( المصون ! ) فكان لهم ما أرادوا . وهنا تتعزز ثقة المحتلين بها ، بعد أن أيقنوا أن لا علاقة لها وعصابتها بالمقاومة أو ما أشبه !!

أما تباعد الخطين من جديد ، بعد نقطة التقاطع الحادة ، فيمثل بعودة بشار إلى باريس ليجد له وطناً آخر في المنفى عوضاً عن وطنه المنهوب ، في الوقت الذي تستثمر ( انتصار خاتون ! ) صلتها المكينة بجنود الاحتلال ،

استناداً إلى مبدأ ( المصالح المتبادلة ! ) ؛ فتزداد وجاهتها الاجتماعية والمالية لقاء ما تمدهم به من معلومات مفيدة !

في سياق هذين الخطين المتقاطعين تجرى عشرات التفصيلات الأخرى التي تلقي الضوء على الشخصيات الرئيسة والثانوية ، والتي تفعم الرواية بالملامح الدقيقة والحيوية ، والملمس الواقعي الخشن ، وتقافز الانفعالات والأفكار . جاء مسار كل خط من الخطين متزامناً مع مسار الخط الآخر ، بطريقة ( المرايا المتعاكسة ) ، بغض النظر عن الاختلاف الظاهري بينهما ؛ فهما منتزعان من مجرى واحد ، ومعبران عنه ، بحيث أصبحا يشكلان معاً كناية واحدة يوحي اللازم فيها بالملزوم ، أي : أحداث الرواية توحي بأحداث ( الوطـن . العراق ) .

ومن ناحية ثانية ، فإن سياق السرد لكلا الخطين ، يبدأ من لحظة واحدة ، هي ( سقوط بغداد ) ، وينتي بلحظة واحدة بعد شهور عديدة من السقوط . ومن خلال هذا الحصر الزمني ينفسح ما قبله على هيئة استرجاعات أو انطباعات ، أو تعليقات تقذف بها الذاكرة ، إما في الوضع الذي تكون فيه الشخصية متأزمة ( بشار ) ، أو مسترخية ( انتصار ) . كل أولئك ( الحصر الزمني ، الانطباعات ...الخ ) جعل ايقاع السرد متوتراً ، سريعاً ، متقطعاً ؛ وهو الأمر الذي وفر للرواية عناصر التشويق .

### ٣ـ التنـــاوب :

إذا كان بناء الرواية العام يقوم على خطين متوازيين ، ومن ثم متقاطعين ، فإن السياق السردي الخاص فيها يقوم على ( التناوب) وهو أن يقدم ( الراوي العليم ) فصلاً من الخط الأول ، ثم يردفه بفصل من الخط الثاني ، وهكذا ... وهو الأمر الذي أعطى الرواية ما يمكن تسميته ( الحركة المتناوحة ) ؛ بحيث توزعت فصول الرواية بين الخطين ، على النحو الآتي :

- فصول الخط الأول ( انتصار وعصابتها ) :
الأول ، الرابع ، السادس ، جزء من السابع ، معظم الثامن ، التاسع ، القسم الثاني من العاشر .
- فصول الخط الثاني ( بشار ومن معه ) :
الثاني ، الثالث ، الخامس ، السابع ، بداية الثامن ، القسم الأول من العاشر ، الحادي عشر .

يتضح من هذا التوزيع أن الفصول المشتركة بين الخطين ، هي :
السابع ، والثامن ، والعاشر ، وما عداها ، يستقل كل خط بفصوله الخاصة
.

لقد هيمنت ( زاوية نظر العليم ) . وهي أن يعرف الراوي كلٍ شئ عن كل شئ في الرواية . على كلا الخطين . لكن بؤرة السرد تضيق أحياناً حتى لتبدو معبرة عن وعي الشخصية ، ولا سيما في الفصول التي ينصرف فيها السرد إلى ( بشار ) ، حين يكون في حالة استبطان ذاتي ، تتجاذبه الهواجس ، والأفكار ، والمراجعات ، والذكريات . حين ينصب السرد على هذه ( البؤرة ) ينتقل إلى ( زاوية النظر المركزية ) الداخلية ، بحيث ينزلق ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم .

وهنا يغيب ( الراوي العليم ) ، ويترك للشخصية التعبير عن مكنون ذاتها ، بعيداً عن أية رقابة فنية مخالفة ..

كما أتاحت هذه البؤرة السردية أنيرقى الأسلوب من حالة ( الاخبار ) إلى نوع من الحالة الشعرية التي تتقافز فيها الجمل ، فصلاً أو وصلاً ، استرسالاً أو انقطاعاً ، تعبيراً عن درجات حساسية الشخصية المتضاربة .

غير أن السرد ، حين تنتهي مثل هذه المواقع المتأزمة في وعي الشخصية ، سرعان ما يعود إلى هيمنة ( الراوي العليم ) التي تتجلى ، في أفضل صورها ، في الفصول التي ينصرف فيها السرد إلى ( انتصار وعصابتها ) .

يخيل إليّ ، بعد ذلك ، أن ( التناوب السردي ) بين الفصول ، وانتقاله من بؤرة ( الراوي العليم ) إلى بؤرة ( الوعي المركزي ) قد حقق لأسلوبها قدرا من التنوع التركيبي في الصيغة الذي يفضي ، بدوره ، إلى تنوع ايقاعي ، إذا أخذنا بمبدأ أن الايقاع هو صورة الأسلوب الصوتية .كما حقق للرواية قدراً آخر من التنوع الأدائي ؛ فهو يقضي على ( الرتابة ) لو أن ( الراوي ) عمد إلى أن تكون فصول كل خط متعاقبة متسلسلة ..

## ٤. الصعود والهبوط :

إذا ذهبنا خطوةً أبعد من ذلك قليلاً ، ونظرنا إلى بناء الرواية القائم على تقاطع الخطين ، وتناوب الفصول ، نظرة دلالية ، أو تلمسنا الوجهة التي يسير إليها كل

خط ، لوجدنا مفارقة صارخة بين الخطين :
فخط ( انتصار وعصابتها ) هو الخط الصاعد صعودا مفاجئاً ، بسبب من التحول المثير من قاع المدينة السفلي ( البغاء واللصوصية ) إلى سمت المدينة العلوي ( الوجاهة ، الثراء ، استغلال النفوذ .. ) ، بحيث جاء هذا الصعود المفاجئ ذا طابع كوميدي ، يستدر الضحك المر على تقلب الحال في فوضى السقوط وانهيار منظومة القيم .

إن جميع ما قامت به ( انتصار وعصابتها ) دال على هذا ( الارتقاء الكوميدي ) : طريقة سرقتها للبنك ؛ احتفالها البهيج بافتتاح دارتها الجديدة ( أو قصرها .. ) في المنصور ؛ انتقامها من ( أبي صهيب ) البخيل القادم في ذيل دبابات المحتلين ( حباً بالانتقام تعويضاً عن أيام سقوطها الأخلاقي ، وليس وطنية أو ما أشبه ! ) ؛ احتجازها المجندة الأميركية التي وقعت بين أيدي عصابتها مصادفة بعد معركة احترقت فيها دبابتها على أيدي المقاومة .. إلى آخر هذا المسلسل .
ويمكن أن نعد وساطتها لاخراج بشار من السجنٍ مندرجاً في هذا الباب ، أو في قمته ، ولا سيما حين احتفلت بخروجه احتفالاً لائقاً شارك فيه ثلة من جنود الاحتلال .

إن جميع هذه المواقف تتسلسل ، هي الأخرى ، على نحو مفاجئ ، وتتناغم مع مفاجأة الصعود من قاع المدينة إلى سَمْتها؛ على أن نأخذ بنظر الاعتبار أنه صعود منبثق من السقوط ودال عليه ، ولكن بوجه لامع بعد أن كان بوجه كالح . وبذلك يندرج هذا النسق ، بنائياً ، في نموذج الشخصية النمطية ، أو الثابتة : وهي التي تكون أفعالها الظاهرة المختلفة معبرة عن باعث واحد لا يتغير ؛ فالوجاهة والثراء في السمت يعادلان البغاء في القاع. والقاع والسمت علامتان تدلان على السقوط .

أما خط بشارٍ ، فهو الخط الهابط إلى الأسفل ، ولكنه يتدرج في هبوطه بصورة بطيئة ، مصحوباً بالتوجس والخوف والتردد ، بسبب من الشباك التي نسجت حوله ، وأجبرته على مغادرة مواقعه المبدئية إلى ( الجانبً الآخر من التل ) ، من دون أن يوفر له هذا الجانب ما يقيه من ( عذاب الجحيم ) ، إلا خطرة مفاجئة خطرت على عقل ( انتصار خاتون ) أنقذته ، هو وابنته، من هذا العذاب . ( مفاجأ كوميدية تنقذ وضعاً مأساوياً !!) .

إن هذا الخط الهابط ذو الطابع المأساوي ، ينحدر بالشخصية من وضع رفيع إلى وضع وضيع ، بالمفهوم الأرسطي للمأساة ، مع ما يرافقه من تحول في اتجاه الشخصية الداخلي . وبذلك تتدرج ، بنائياً ، في نسق ( الشخصية النامية ) التي

تفضي تحولات أفعالها الخارجية إلى تحولات بواطنها الداخلية .

لكن الغريب في الأمر ، حين نوازن بين هذين المنحيين ، أن الشخصية الثابتة ( انتصار خاتون ) تفعل ما تفعل عن قناعة وإرادة وإقدام من أي اعتبار لأي قانون سماوي أو وضعي ؛ على حين نجد أن الشخصية النامية ( بشار ) تفعل ما تفعل على غير إرادة منها ولا اقتناع ، كأنها مسوقةٌ بقدر مجهول لا راد له.

الأولى مخيرة ، والثانية مسيرة . ومن ناحية ثانية ، فإن شخصية ( بشار ) بانحدارها المأساوي اللاارادي تدل على شخصية انتصار بصعودها الكوميدي الارادي ، والعكس صحيح. فما أصاب أصاب كليهما ، طوعاً أو كرهاً ، متأت من ( الوضع البشري ) الجديد ، الذي جاء ( بالحرية على ظهر دبابة ، وتعزفُ لها الأسلحة نغمات الترحيب ! ) ، كما جاء في الفصل الثالث من الرواية .

يأخذ هذا ' الوضع البشري ' . إذا جاز لنا أن نستعير عنوان رواية أندريه مالرو . طابعاً جحيمياً في جميع أبعاده ؛ فالخطان ، الصاعد والهابط ، إنما يمضيان ويتقاطعان ، ومن ثم يفترقان ، من غير أن يغادرا حيز الجحيم .

أما الظن بأن بشارا قد أخرج من ( الدرك الأسفل ) إلى ( جبل الأعراف ) العودة إلى باريس ، والارتماء في أحضان الرسامة ايزابيل ، فليس إلا هرباً من جحيم جماعي إلى جحيم ذاتي ، تكون فيه لذة التطهير تذكيراً بعذاب الجحيم ، بحيث يصبح الانغمار الصوفي في وثنية الجسد جسراً يفضي إلى الضياع التام .

دعني أقل : هل يستطيع الإنسان أن يسلخ عنه تاريخه المثقل بعصارة الآثام وآثار العذاب بهذا النوع من الخلاص الذاتي التطهري ؟

من هذا السؤالِ قد ينفسح أملم القارئ فضاءٌ آخر يمكن له أن يملأه بتأويلاته الخاصة ، بعيداً عن مقاصد الكاتب وحذلقات الناقد! وهذا هو ( المسكوت عنه ) في الرواية .

## ٥ . ملمح رمزي :

ذكرت أن الرواية ذات مذاق واقعي خشن وصريح ، لكنها ترقى إلى مستوى الرمز ( بمعناه الدلالي ، لا الأسلوبي ) ، ابتداءً من أسماء شخصياتها ( انتصار ، بشار ، أمل ، خالد ..) وانتهاءً بالطقس الوثني التطهيري في نهاية الرواية ؛ فهذه الأسماء تدل على نقائضها ، وهو الأمر الذي يعزز المفارقة الساخرة في الرواية .

ويمكن أن نعد ( اللوحة ) التي رسمتها ايزابيل لبشار ، واختفاءها من المعرض الذي كان من المفروض أن تعرض فيه ، ثم العثور عليها في الحلم الذي تراءى لِ ( أمل ) ابنة بشار ، من أكثر مشاهد الرواية انفتاحاً على الأداء الرمزي .

إن دلالة اللوحة على الجمال ورقي الذوق والصلة الروحية ، يقابله فقدان ذلك كله باختفائها ، وهذا يتناغم مع خط الهبوط الذي عاناه بشار في ( الجحيم ) ، بكل أبعاده النفسية والمادية .

أنا أعرف ، بشكل من الأشكال ، أن أي أثر أدبي ، أياً كان جنسه وزمنه ، ينطوي على بعد رمزي ؛ لأن لغته تنتقل من وظيفتها المعرفية إلى وظيفة جمالية ، يتحقق فيها ( معنى المعنى ) ، بعبارة عبد القاهر الجرجاني المشهورة .

مع ذلك ، تظل في الأثر الأدبي بقع خاصة أشد بروزاً من غيرها ، تشع بايحاءات خاصة ، قد تلقي بظلالها الغامضة ، الواقفة على حافة المعنى ، على مجمل الأثر الأدبي .

وهذا ما استطاعت ( اللوحة ) وتشعباتها أن تحققه في ( الظلال الطويلة ) .

* * *

أعود فأقول :

لقد قرأت رواية أمجد توفيق ( الظلال الطويلة ) مرتين : مرة للمتعة الفنية الخالصة ، ومرة للفحص النقدي . فهل استطاع هذا الحديث أن يصل إلى ما يبتغي ، أو إلى بعضٍ ما يبتغي ؟

لست موقناً من ذلك ، بيد أني موقن أن أبيات السياب التي اختتم بها قصيدته ( المعبد الغريق ) ، والتي تتقلد صدر هذا الحديث ، تتناغم في دلالتها الشعرية مع دلالة ( الظلال الطويلة ) السردية.

---

**. مجموعة ( المعبد الغريق ) ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٠٦ .**

**. نشرت رواية أمجد توفيق ( الظلال الطويلة ) متسلسلة أسبوعياً في جريدة الزمان ، ابتداءً من العدد الصادر في ٢١/ ٤ / ٢٠٠٤ ، وانتهاءً بالعدد الصادر في ١٢ / ٢ / ٢٠٠٥ .**

# مدخل :

**تموت الأشجار إذا نقلت من أرض لأرض ..**
**وتموت الطيور إذا غادرت بيئتها ..**
**وتموت الحيوانات ..**

إنها تدفع ثمن صدقها ، والصدق عندما يكون نقيا أصيلا ، فإنه يصبح وجها آخر للموت ، فالموت يحفظ للصدق نقاءه .. إنه يقتله ..

وبرغم القسوة والجمر الذي ينشف مآقي العيون ، يكون الموت في حالات كثيرة محورا تتوازن الحياة على محيطه ، فهو سرها ، وفكرتها العميقة، ورعبها الذي يبتدع آلاف الوسائل للنسيان أو الكذب ..

ليست الأشجار بحاجة إلى الكذب ..

ولا الطيور أو الحيوانات ..

لسبب سهل هو أنها لا تتذكر .. هكذا يقولون !!

لكن حمار الحاج مصطفى ذكي ( استخدام اسم الحاج مصطفى لا يعني بالضرورة إنه اسم ذو وظيفة ، ذلك إن الحمير بلا أسماء ، ولا بأس من استخدام أسماء أصحابها للدلالة عليها ، على الرغم من أن وظيفة الحمار في هذه السطور أهم لأنها مقصودة بالتميز ..) ويحق لمن يتابع خطواته أو يتأمله أن يميزه عن صاحبه بصفة الذكاء عينها ..

إنه يعرف الطريق إلى الحقل أو المدينة ، ويعرف الطريق إلى (علوة الخضار) ، والطريق الأقصر إلى الجامع الوحيد ، وعندما تدور الاتجاهات في رأس الحاج ، فإن حماره لا يخطئ في تثبيتها أبدا ..

من العبث حقا أن نقول إنه لا يتذكر ، أو نبحث عن مسوغات أخرى لا خلاص أحمق لجملة سمعناها من غيرنا ..

الحكمة أن نتأمل ، ونصمت ، فلا مسوغ لإطلاق أحكام لا تتوافر لدينا القدرة على الإحاطة بتشابكات علاقاتها وسعتها ..

فحمار الحاج مصطفى قادر على الدفاع عن سمعة جنسه بأفضل مما يستطيع صاحبه أن يفعل ..

نقلت شجرة غار من بستان في غرناطة ، وزرعت في أرض أخرى هي حديقة بيت جميل في بغداد يبعد ستة آلاف كيلو متر عن موقع الشجرة الأصلي ..

لم تكن العناية أو الأرض المسمدة جيدا كافيتين لاحتفاظ الشجرة بحياتها ، فقد رفضت جذورها أن تشرب أو تتغذى ، فماتت ..

إنه الصدق والوفاء للبيئة الأولى ، ولا علاقة للشجرة بالمنتصرين الذين جعلوها رمزا ، فغرناطة غادرت مجدها في اليوم الذي بكى فيه آخر ملوك الطوائف على أرض الأندلس بدل أن يدافع عنها ، ومن المؤكد أن شجرة الغار لا تتذكر مجد مدينتها ، ولم تقرر الموت إخلاصا أو وفاء لهذا المجد، فكل هذه المرادفات إنتاج إنساني لا يعني شجرة الغار ، فهي لم تكن معنية إلا باختلاف البيئة لا بتقويمها ..

ولو نقل حمار الحاج مصطفى إلى بستان غرناطة - موطن شجرة الغار - فمن الممكن جدا أن نتوقع إنه سيجد في مكان الشجرة فراغا يصفن فيه ( استخدام فعل يصفن

صحيح ، إنه يعني قيام الحيوان على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة ، ولا علاقة له بالاستخدام العامي للفعل ! ) .

فإذا ما صفن الحمار ، هل لأحد أن يثبت أنه لا يتذكر صاحبه ؟

وصفنة الحمار أي وقفته قد تطول ، وسيهمل غذاءه ، وربما امتنع عن شرب الماء ..

فإذا ما قاد ذلك إلى الموت .. فهل لأحد القدرة على الشك في إخلاص الحمار للحاج مصطفى أو الطرق والاتجاهات التي يعرفها والنباتات التي اعتاد أن يتغذى عليها ؟

سيكون صادقا ، ويكفيه جمال الصدق ..

وغاية الصدق في الحالة هذه أن يكون الموت إعلانا نهائيا عنه ..

أما المدن ، فإنها نادرا ما تموت .. وكل ما قد نعرفه عن المدن المنتهية أو المتلاشية أو الساقطة ، لا يمثل سوى صدى لتاريخ موغل في تراب السنين ..

هل للصدق علاقة بمدن الصدى ؟

يمكن الموافقة على السؤال كجواب ، ويمكن صياغة بحوث ودراسات تؤكد حقائق لا تجد ثباتها إلا على صفحات الورق ، أما الحقيقة كما هي ، فليس لأحد القدرة على إثبات رؤية جوهرها ..

المدن لا تموت ..

إنها تتنكر .. تغير جلدها ، وصوتها ، وعطرها ، وتسريحة شعرها ، لتوفر إمكانيةً للقول إنها تتجمل بدل طعنها بالكذب ..

أتتجمل المدن أم تكذب ؟

ليس ثمة تناقض بين الفعلين إلا بالقدر الذي يحدثانه من أثر ، فاللغة تحمي الفعل الأول ، وتمده بمسوغات الدفاع ، أما الفعل الثاني فلا يجد مسوغاته إلا في نفوس جامحة تعيد ترتيب المعنى عبر الأثر ..

أما المدينة نفسها ، فلأنها بلا ذاكرة أو أن ذاكرتها مطعونة بالتشابه مع الذاكرة الضعيفة للجمهور ، فإنها تنصب شراك الغواية ، ولا فرق عندها بين راهب وغانية .. هذا ما اعترفت به المدينة في لحظة صحو تأتي كنقطة في مسلسل من دوار عميق..

المدينة في دوار ، أما الكلمة فإنها تبحث عن النقطة في لحظة الصحو.. ولحظة الصحو هذه تجرح الشجرة والطير والحيوان عندما تبحث لهم عن صفات إنسانية ..

# الفصل الأول

**الشجاعة الحقة لا تبحث عن شهود وتوثيق وإعلان ، إنها شجاعة قلب جسور حقق انسجاما صعبا وفذا مع قوانين الغريزة والجسد ، وعلاقتهما بالعقل ..**
**ولو كان أي من الجالسين على سطح بيت قديم مبني من الطابوق في حي شعبي قرب نهر دجلة في بغداد واعيا أو مدركا لفعله الشخصي أو ذلك الذي يرتبط بحركة مجموعته ، لفقد على الفور كل ما يمتاز به أو يصفه..**
**خمسة رجال مدججين بالأسلحة ، جلسوا على فرش ممدودة على أرض السطح**

تحيط بهم وسائد سرعان ما تنتقل من جهة لأخرى دون أن يكون هذا التنقل مرتبطا بالاستلقاء أو حاجة الجسم ، إنه يشبه بوصلة ما تقرأ الحالة النفسية والعصبية لهم ، الحقيقية منها أو تلك التي يحاولون إيهام بعضهم بعضا بها ..

إنهم في هذا المكان ليسهروا ، وسهرتهم تبدأ باحتساء مشروبات كحولية من قنان لم يَدّع أي منهم معرفة بأسمائها وأنواعها ، يكفيهم أن يعرفوا أنها مشروبات فاخرة تعود لأصحاب قصور فارهة هاجرت خوفا من القتل..

مع دبيب الخمر الجيد تتصاعد حمى الحديث لترسم خريطة من نوع خاص تتضمن قراءة للأوضاع في المدينة ، وما يترتب على هذه القراءة من أفعال أو حركة يقومون بها في اليوم التالي ..

في الباحة الداخلية للدار شباب يعدون العشاء ، وينقلون أطباق المقبلات للساهرين على السطح ، وهم في غدوهم ورواحهم يتحدثون ببهجة وحماسة عن صاحبة هذه الدار التي انتقلت إلى حي المنصور ، وسكنت دارة كبيرة فارهة ، يحرسها شباب مسلحون ، ويعمل على خدمتها رجال ونساء ، اتفقوا على مناداتها بالخاتون ، وهم يعرفون جيدا أن الخاتون واسمها انتصار ليست أكثر من بغي في حي شعبي . لكنهم الآن مستعدون للقسم بأنها أكرم وأكثر طيبة من كل من عرفوا من أشخاص يدعون التقوى وعمل الخير ..

قال جاسم الريس ، ( وهو أحد الرجال الساهرين على السطح ، في نهاية العشرينات من العمر ، أتهم بجرائم كثيرة ، ولأنه يحب الظهور والإدعاء لم يكذّب أي فعل أو صفة أطلقت عليه )، قال :

ـ أليس من الواجب أن ندعو انتصارا لمشاركتنا السهرة ؟

وأطلق قهقهة عالية ، قطعها عباس الحربة ، قائلا :

ـ يكفيها أنها خصصت هذا البيت لخدمتنا .. ماذا تريد منها ؟

ـ وماذا يريد أي رجل من انتصار .. تستطيع تسليتنا أم أنها تنكرت لأصلها ؟

ـ دع حديث الأصل جانبا ، فنحن نعرف بعضنا جيدا ، ولا أريد ذكر انتصار بسوء ..

نظر جاسم إلى بقية الرجال ، وحين شعر انهم لا يودون الاستمرار في هذا الحديث ، قال :

ـ لا تغضب ، ما أردت سوى أن نضحك قليلا ..

لكن عباسا ( وهو في الثلاثينات من العمر ، يمتاز بملامح بريئة تخفي إعصارا من قسوة وعدم ثقة وأنانية ، قضى شبابه هاربا من الخدمة العسكرية ، وامتهن مهنا عديدة قادته إلى قاع المدينة حيث لا يضطر إلى كشف هويته أو عنوانه لأنه يفتقدهما.. ) لم يمهله إذ دلق محتويات كأسه دفعة واحدة في جوفه ، وقال بنبرة جادة و متحدية :

ـ إذاً ، أنت تريد أن تضحك وتستمتع ، هذا حسن ، ثمة طريقة

تضمن ذلك ، وتمنحك قيمة ورجولة إضافيتين ، ما قولك ؟
نظر جاسم إلى زملائه الذين نظروا إلى عباس متسائلين .. غمغم أحدهم:
ـ وما هي هذه الطريقة ؟
ـ ثمة دبابة أميركية تركن عند تقاطع الرشيد بالفرع الذي يؤدي إلى شارع النهر .. هل يستطيع جاسم أن يذهب ويفجرها بدل الحديث عن دعوة انتصار للتسلية معها ؟
قال جاسم مستنكرا :
ـ وهل نحن من رجال المقاومة ، ما شأننا بالأميركيين ؟
ـ ألم يحتلوا بلدنا ؟
ـ لا أفهم في السياسة ، ولا أحب السياسيين ، جئنا لنستمتع وأنت تحول جلستنا إلى نكد وغم ..
ـ الموضوع يتعلق بالرجولة وليس بالسياسة ، قل أنك خائف ..
ـ أنا لا أخاف أحدا ..
ـ اثبت ذلك ..
ـ وإن فعلت ؟
ـ ستكون ضيف الشرف في حفلة كبيرة أقيمها لك ..
ـ اتفقنا ، وسأثبت لك ولغيرك بأن جاسما لا يخاف أحدا ..
همّ جاسم بالنهوض ، فأوقفته أيدي الرجال ، قال عباس :
ـ أظن إن رأسك مملوء بالتبن ، أهكذا تثبت رجولتك ؟
قال جاسم بغضب :
ـ عجيب أمرك .. أليس هذا ما تحديتني من أجله ؟
ـ اسمع .. لا نريدك أن تموت ميتة الكلاب المطاردة ، ارسل أحد الشباب لاستطلاع المنطقة ، وارسم خريطة الذهاب والعودة ، فالأمر ليس لعبة أو محض تباه ..
ـ انتظروني على العشاء ، فصبياني يجيدون إعطاء نصائح أفضل من نصائحكم ..
وقف جاسم ووجه نظرة فيها إيحاء فظيع إلى عباس الذي تذكر على الفور إن جاسما قتل رجلا من أجل كيس فارغ كان يحتاجه لوضع النقود المسروقة من المصرف ..
نزل السلّم وأخذ ينادي أحد صبيانه ..
ما إن اختفى صوته ، قال عزيز الأرمني ( في منتصف الثلاثينات ، ولا يعرف على وجه التحديد كيف اكتسب لقب الأرمني ، هادئ .. غير مبال ، حريص على تأمين نفسه ، والتدقيق في الأعمال التي ينفذها ) بهدوء ، وصوت عميق :
ـ لقد حصل ما حصل ، ماذا ستفعل ؟
ـ لا أفهم قصدك ..
ـ بل تفهمه جيدا .. أمامك أحد خيارين ، الأول : أن تفشل العملية ، ويقتل جاسم

، والثاني : أن تقوم بقتله أنت ..
ـ هل من خيار آخر ؟
ـ قله أنت ، فأنا لا أعرفه ..
ـ حسنا .. ألا يمكن أن ينجح جاسم ، ويأتي لمشاركتنا العشاء كما قال ، وكما أرغب حقيقة ..
ـ في الحالة هذه ، أنت تزرع شيطانا في كل خطوة من خطواتك ، وسنعاني جميعا من ذلك ..
ـ لماذا كل هذا ؟
ـ قبل جاسم التحدي ، ووافق على المغامرة بحياته لقاء لا شيء، فهو غير معني بالأميركيين ودباباتهم ..إن المقابل الحقيقي لفعله يكمن في تعريضك لخطر مؤكد لا خلاص لك منه ، فالمغامرة بحياته لا تعني سوى إقرار بالموت ..
ـ سننتظر ، ونرى ..
ـ لا .. عليك أن تحذر ، وتنفذ ما استقر في ذهنك ، ولا تنس أنك البادئ ..
كان سكوت الرجلين الآخرين ( أسمر ياقو وجبار الأسود ) دلالة على تأييدهم لزميلهم ، وعدم اعتراضهم على النتائج المتوقعة للعملية .. حينها أدرك عباس الحربة أنه في محنة لا يدري على وجه التحديد كيف حصلت ، المهم أن يجد طريقا أو وسيلة لمعالجة الموقف ، وهو يعرف إن السرعة تقصر عمر المشكلة ، أما الزمن المتراخي فإنه ليس أكثر من شرك قد يبتلعه في أية لحظة ..
انسحب إلى زاوية سياج السطح ، وبدأ يرقب الطريق المؤدي إلى شارع الرشيد ، وهو يفكر ..
قبل سنتين كان الرجال الخمسة نزلاء عنبر الأحكام الثقيلة في سجن ( أبو غريب ) مثقلين بأحكام الإعدام التي ينتظرون أن تنفذ بهم في أي يوم .. وبرغم أن قضاياهم منفصلة ، ولم يكونوا على اتصال أو تنسيق للأعمال والأفعال والجرائم التي قادتهم لهذا المصير ، فإنهم يعرفون بعضهم بعضا بالأسماء أو الشهرة أو القصص التي يرويها الآخرون عن سيرة كل منهم ..
جمعهم السجن ، ووحدهم الحكم بالموت ، وآخى بينهم انتظار تنفيذ الحكم..
بين الندم والغضب والخوف احتمى كل منهم بزملائه كي لا يخر صريعا من رعب انتظار الموت .. كانوا يدركون إن زمالة السجن وفرت حافزا للاستمرار دون طعن مقاييس رجولتهم بالتخاذل والخور .. وكانوا يهربون من لحظات الضعف باستذكار أفعالهم بل المبالغة في تصويرها ..
سرقة سيارات / خطف أشخاص والمطالبة بفدية / ابتزاز تجار / اعتداءات / حوادث قتل / مجالات أوغلوا في الغوص في عتمتها ولؤمها وقساوتها ..
لاحظ عباس الحربة وهو في وقفته على السطح خروج جاسم الريس مع أحد صبيانه

، وقد تخلى عن بندقيته الكلاشينكوف ، وحمل قاذفة صواريخ من النوع الذي يحمل على الكتف ، اما مرافقه فإنه يحمل بندقية مع حاوية توقع عباس أن تكون مليئة ببنزين السيارات ..

اذاً ، فقد فكر جاسم ، ولا بد أنه رسم خطة العملية .. فجأة التفت جاسم إلى السطح ، وبرغم النور الشحيح التقت عيناه بعيني عباس كمن يدرك عن يقين أن ثمة من ينظر إليه ويراقبه ، صرخ جاسم :

ـ انتظرني على العشاء ..

لحظة فكر عباس أن يعرض على جاسم مرافقته لتنفيذ العملية بصورة مشتركة ، لكنه صمت ، فذلك خارج قانون اللعبة وهو محض شعور بالضعف ، وعدم الثقة ، ولا ينسجم مع رجولة عمدتها الجريمة بكل الشرور ..

قبل السجن يتذكر عباس أنه شاهد جاسما في هذا البيت . كان قصد انتصارا للترفيه ، وافتعل مشكلة ، فاستقبل سيلا من شتائمها ، وعندما هددها بالقتل ، تدخل عباس وطلب منه الخروج على الفور ، فليس من الرجولة تهديد النساء ..

ها هي ـ انتصار ـ من جديد تشكل سببا في احتكاك معه .. إنها لا تعنيه بشيء ، وليس من ارتباط يجعله مدافعا عنها ، لكنه يشعر بكثير من الطرافة والسرور وهو يستعيد قصتها مع الغنى ..

كانت تعيش في هذا البيت مع شقيق صعلوك مخمور يتلقى الصدقات والإكراميات من الراغبين في المتعة مع شقيقته ..

في أمسية نيسانية ، عندما كانت بغداد تحتل ، خرج هذا الشقيق المخمور من البيت وهو يحمل كيس دقيق فارغ .. كان يبحث عما يملأ به الكيس من سرقات بعدما أصبحت عمارات ودوائر شارع الرشيد مهجورة .. اقترب من البنك المركزي ، وثمة أحوط به رجال مسلحون ، وانتزعوا الكيس الفارغ من يده، وأخذوا يعبئونه برزم الدولارات ، وهو يساعدهم في ذلك ..

ما أن أظلمت السماء ، واقتربت رشقات الرصاص حتى غادر الرجال المسلحون بعد أن رموا برزمة من الدولارات مكافأة له .. أخذها وهرول عائدا إلى البيت .. رأت انتصار رزمة النقود الخضراء ، فعرفت القصة .. طلبت أن يقاسمها المبلغ ، رفض ، ثم دخل غرفته وأوصد الباب .. فكرت أن الفرصة لا تتكرر ، وعليها أن تفعل شيئا يخلصها من حياة الذل والفقر التي تحياها .. جمعت أكياسا فارغة ، والتقطت عباءتها ، ثم غادرت البيت ..

عند الباب وجدت صبيا صغيرا غالبا ما كانت تعطف عليه ، وهي لا تعرف أهله ، لكنه من سكنة المنطقة ذاتها .. نادته ، فركض باتجاهها ، فطلبت منه مرافقتها ..

عندما وصلت البنك المركزي ، كان الرصاص قد توقف تقريبا ، والمنطقة غارقة في الظلمة ، والباب موصد .. تلمست الحائط ، فوجدت نافذة مكسورة وحديدها محطم ..

قدح خاطر في ذهنها ، فعملت على تنفيذه .. أرسلت الصبي إلى البيت لجلب مصباح يدوي موضوع على جانب سريرها .. انطلق الصبي ، فجلست أسفل النافذة تنتظر وتحلم ..
وصل الصبي حاملا المصباح ، رفعته نحو النافذة ، وطلبت منه النزول إلى الداخل .. ما أن أصبح الصبي في الداخل حتى ناولته المصباح ، وأمرته أن يبحث عن رزم النقود ، ويسلمها لها ..
في أقل من نصف ساعة ، كان كيسان كبيران من أكياس الدقيق ممتلئين برزم الدولارات والدنانير.. الصبي يعمل ، وانتصار كتلة متفجرة من طاقة ونشاط وأحلام ومساحة توقع ..
كما لو أنها تحمل ريشة ، تناولت انتصار جسد الصبي ، وأخرجته من النافذة إلى الخارج .. حملت كيسا على كتفها ، وطلبت من الصبي مساعدتها في سحب الكيس الثاني ..
وصلا البيت .. اندفعت تحتضن الصبي وتقبله ، وترجوه أن يأتي كل يوم لزيارتها .. ملأت جيوبه بالهدايا والحلويات ، وأكدت عليه ألا يتحدث عما فعلاه في هذه الليلة لأحد حتى وإن كان أبوه أو أمه لأن ذلك معناه الموت للجميع .. أقسم الصبي بأنه لن يتكلم ، وخرج مودعا بالقبل والدعوات ..
بعد أيام أصبحت سرقة البنك على كل لسان ، وتداخلت الحقائق بالأكاذيب .. عرف سكان المنطقة أن انتصارا وشقيقها ساهما بنصيب في السرقة دون أن يكون لأحد القدرة على التأكيد ، وعندما حوصر شقيق انتصار : ذكر حقيقة ما يعرف عن الرزمة التي رماها اللصوص إليه .. لم يصدقه أحد ، ومات مقتولا برصاصة مجهولة ..
ربما كان مقتل الشقيق ثمنا لفسحة من الزمن استطاعت انتصار أن تخفي أموالها ، وتفكر في أساليب لاستثمار المال ، وتغيير حياتها ..
تركت الحي بصورة سرية ، واختفت أخبارها ، حتى ظهرت بشكل جديد : سيدة محترمة تسكن دارة فخمة في المنصور ..
في ضحى يوم مشمس ، وقفت سيارة كاديلاك ذهبية المقابض أمام محل لبيع المعجنات في شارع الرشيد .. نادت المرأة الجميلة الأنيقة التي تقود السيارة صاحب المحل ، وطلبت منه عدة أصناف من المعجنات، ركض الرجل لتلبية طلبها ، في حين أخذت المرأة تتأمل الشارع وبناياته التي أكلتها النيران ، وخلفت السخام في كل مكان ..
في ذلك الوقت ، مر عباس الحرية .. كان ينظر إلى المرأة وسيارتها الفخمة ، وهاله أن يلاحظ أن المرأة تشير إليه أن يتقدم نحوها ..
تحسس عباس مقبض مسدسه ، وسار بخطى وجلة باتجاه المرأة .. ظهر صاحب المحل حاملا مطالب المرأة ، ففتحت الصندوق الخلفي ، وأشارت أن يضع العلب فيه ،

وناولته مبلغا يزيد كثيرا على ثمن ما اشترت ..
لاحظ عباس ذلك .. كان واقفا ينتظر .. طلبت منه ركوب السيارة إلى جانبها مع ابتسامة جمدت أي احتمال للاعتراض أو التساؤل ..
وفي لحظة استدار إلى الخلف . أدرك أن السيارة مراقبة من سيارة أخرى تسير خلفها .. سألها إن كانت تعرفه أو ترغب في أية خدمة .. ضحكت المرأة ، وصاحت في وجهه بأنه أصبح أحمق ، وفقد ذكاءه ..
دهش حين عرف أن المرأة الجميلة الأنيقة الثرية ليست سوى انتصار ، فانفجر في ضحكة شاركته انتصار في جعلها مناسبة لاستقطاب أنظار جميع المارة في الشارع ..
ما إن هدأت ، وانتظم مسير السيارة على جسر الشهداء ، حتى أمسكت بكف عباس ، وطلبت أن يشرح لها أوضاعه ، وهل من مساعدة يمكن أن تقدمها له ..
بين مكذب ومصدق أخبرها إنه لا يحتاج شيئا ، وذكر ملاحظة ضحكت لها انتصار كثيرا ، قال أنه وزملاءه يجدون أنهم يعيشون العصر الذهبي الذي يحلم به أي رجل يكره الدولة والقانون ورجال الشرطة ..
حاولت استبقاءه ، لكنه كان مرتبطا بموعد .. أعطته عنوانها ، وقبل أن يودعها ، تذكر البيت القديم ..
قال إنه يحتاجه ..
أجابت على الفور بأن من حقه التصرف فيه ..
كان الكرم ممزوجا بالجمال وخفة الدم والجرأة ..هذا ما أصبحت انتصار عليه ، ومن حقه كما يرى أن يذكرها بتعاطف ..
عاد عباس ، وجلس إلى جوار زملائه ( أسمر ياقو وعزيز الأرمني وجبار الأسود)..
قال جبار ( وهو رجل ذو بشرة غامقة ، كثير الضحك ، يحب التعاون ، في الثلاثينات من العمر ، صاخب في حركته وأفعاله ) :
ـ هل توصلت إلى قرار أو خطة ؟
سأل عباس :
ـ بشأن ماذا ؟
ـ كنت أتصورك مشغولا بالكلام الذي دار بينك وبين أسمر ..
ـ لا .. كنت أفكر في انتصار ..
ضحك عزيز الأرمني كثيرا ، وقال :
ـ إن الرجل لا يتعرى إلا أمام النساء ، وهو كما ترى يحترمنا ، ولن يتعرى أمامنا بذكر خططه ..
عقب أسمر ياقو ( رجل طويل القامة ، اتهم بقتل صاحب محل لبيع المشروبات الكحولية اسمه ياقو ، ومنه اكتسب اللقب . في الثلاثينات من العمر ، قليل الكلام ،

منفذ بارع في العمليات التي يقوم بها ) :

ـ دعونا نأمل أن ينتهي الأمر ، ولا يصدع رؤوسنا .. اشرب يا عباس فقد سبقناك ، وبالمناسبة ما أخبار انتصار ؟

قال عباس :

ـ إنها تذكركم بخير ..

قال جبار الأسود ضاحكا :

ـ ما أظنك صادقا ، فماذا تتذكر منا كي تذكرنا بخير .. أصواتنا عالية، وفوضانا عارمة ، ونقودنا حسب التساهيل ، وألسنتنا أطول مما تحتاجه مّنا .. ماذا تتذكر يا رجل ؟!

في اللحظة تلك ، وقبل أن يستطيع عباس الحربة أن يجيب ، انطلقت زخات غزيرة من الرصاص ، وامتلأ جو المكان بأصوات انفجارات ، وتداخلت أصوات الأسلحة الخفيفة بالمتوسطة بقذائف الدبابات الثقيلة ، وفي لحظات تعالت ألسنة النيران ..

وضع الرجال كؤوسهم على الأرض .. قال أسمر :

ـ ما كنت أظن إن جاسما قادر على فعل كل ذلك ..

قال عزيز :

ـ لا .. الأمر أكبر من قدرة رجل واحد .. اسمع ، ثمة أكثر من دبابة تباشر الرمي ، وثمة أصوات لرشاشات متوسطة ترمي فضلا عن صواريخ تحمل على الكتف .. الأمر غير معقول .. إنه أكبر من قدرة جاسم ..

انتشر الأطفال على سطوح المنازل ، وارتفعت أصوات الآباء والأمهات تدعو الأطفال إلى النزول ، وحماية أنفسهم من الطلقات الطائشة ..أما الشباب المتجمعون في باحة البيت ، فقد انقطع حديثهم ، وتمسك كل منهم بسلاحه بانتظار أوامر الرجال الذين يسكرون على السطح ..

انتشر الحريق ، وازدادت كثافة الدخان .. اتجاهات الرمي تكشف وصول إمدادات جديدة للأميركيين ..

قال عباس الحربة :

ـ اسمعوا .. يجب أن نتهيأ لما هو قادم .. قد ينتشر الأميركيون ، ويفتشون المنازل أو يتابعون جاسما ، فيقودهم إلى هذا المكان ، يجب ألا نقتل كالخراف ..

قال أسمر :

ـ كلام صحيح .. لننزل إلى الداخل ، ونضع خطة لمواجهة التطورات..

نزل الرجال الأربعة إلى الداخل ، وهناك طلبوا من الشباب الانتهاء من أعمال الطبخ ، ثم أخذوا يوزعونهم في اتجاهات تضمن توفير إنذار مبكر لأية حركة مفاجئة ..

بعد أن انتهوا من الأمر ، تبادلوا الآراء في كيفية الانسحاب من البيت ، وآثروا سلوك مسالك الأسطح المتلاصقة في عملية هرب محتملة ..

وأخذوا ينتظرون ..
قال جبار :
ـ أنا أكره الانتظار ، سأصعد إلى السطح ، وأواصل الشرب بانتظار جاسم ..
قال أسمر :
ـ قاتلكم الله ، أفسدتم الليلة علينا ، ماذا سنربح من هؤلاء الأميركيين؟
همس عباس في أذن عزيز :
ـ أرسل شخصا للاستطلاع على ألا يغيب أكثر من عشر دقائق ، ولا يعرض نفسه أو يعرضنا للخطر ..
قال عزيز :
ـ هذا ما كنت أفكر فيه ..
غاب دقائق ، وأشار إلى عباس أن المهمة بدأت ..
قال عباس :
ـ إذاً ، لنلتحق بجبار ، ذلك أفضل ..
اجتمعوا على السطح من جديد ، كان الرمي متواصلا ، وهدير الدبابات والمدرعات وسيارات الإسعاف يصل لينبئ عن قيمة المعركة وسعتها ..
فكر عباس : أ يمكن أن يحدث كل هذا ؟ إذا كان جاسم وراء العملية ، فإنه بطل حقيقي .. أ يستطيع أن يفعل ذلك بمساعدة أحد صبيانه لا غير؟ لقد رأيته بعيني .. إن أي حساب يفشل في تفسير الأمر .. لم أتصور أن أسمع سوى انفجار واحد يعقبه رصاص متقطع يأتي كرد فعل ، ثم ينتهي الأمر .. يا إلهي إن ثمة سرا كبيرا ..
عاد الشاب الذي أرسله عزيز لاهثا مرعوبا .. قال :
ـ رأيت دبابتين محترقتين ، وسيارتين مقلوبتين تقف إلى جانبهما أربع سيارات إسعاف ، ورأيت أربع حرائق في اتجاهات مختلفة .. ورأيت جثة شاب مقتول ، أما الشارع فقد امتلأ بالسيارات والجنود .. هذا ما رأيت ..
شكره عزيز ، فأسرع الشاب بالنزول ..
قال عباس :
ـ إذاً ، الأمر أكبر من قدرة جاسم ، ولكن الغريب أين ذهب هذا اللعين، فقد مر وقت طويل ..
قال عزيز :
ـ تناولوا عشاءكم ، وغادروا البيت دون تأخير ..
الغريب في الأمر إن الجو الملتهب وصوت المعركة وصداها لم يؤثرا في شهية الرجال ، ويمكن لمن يلاحظهم أن يستنتج أن هؤلاء لم يأكلوا منذ فترة طويلة ، وهو استنتاج خاطئ ، أو أنهم يتوقعون أن يكون عشاؤهم هذا عشاءً أخيرا .. لكن أيا من الاستنتاجين لا يهمهم في شيء .. إنهم يعيشون لحظتهم برغم إدراكهم أن كل دقيقة مفتوحة على

أحداث غير متوقعة ..
عندما غادر عباس الحرية مستخدما خفته في القفز على سياجات السطوح ، كانت آخـر جملة سمعها من عزيز الأرمني ترن في أذنيه :
ـ للمرة الثانية تدخلنا في أمور السياسة ، ونحن كما تعرف لا نحب ذلك .. أرجو ألا تكون ثمة ثالثة ..
أعاده كلام الأرمني إلى المرة الأولى ، والقضية كما يراها لا تتعلق بالسياسة قدر تعلقها بأقوال الرجال وأفعالهم ، كل ما هناك أنهم وعندما كانوا في السجن صدر أمر بالإعفاء عن جميع السجناء لأسباب قدرت في حينها أن الحرب قائمة لا محالة ، ويمكن الاستفادة من المسجونين بدل تحويلهم إلى قنابل موقوتة يستخدمها الأميركيون ..
المهم أنهم فرحوا كثيرا . كان الأمر أشبه بصعقة كهرباء مفاجئة .. من حكم مؤكد بالإعدام إلى حرية غير مشروطة ، إنه حلم أو ما هو أكثر ، فلا يمكن توقع حدوث شيء مماثل إلا في العراق ، فهو بلد أشد الأحلام جموحا ، وأشد الكوابيس رعبا ..
شارك الرجال مع غيرهم في مظاهرات فرح وتأييد للقرار المعجزة ، وفي لحظة أقسموا فيما بينهم أن يحتفلوا بميلاد الرئيس الذي جعل للمعجزة قدمين تمشيان على الأرض ..
جاء موعد الاحتفال في زمن هو غير ما يتوقعون ، وفي خضم أحداث وتغييرات تتحدى أية مخيلة أن تكون قد فكرت أو توقعت هول ما حدث ويحدث ..
جاء الموعد ، وذكّر عباس زملاءه بقسمهم السابق ..
صاح جبار :
ـ أ يمكن لعاقل أن يفكر في ذلك ؟!
قال أسمر :
ـ للاحتفال الآن معنى مغاير لما اتفقنا أن نقوم به ..
قال جاسم :
ـ إن عباسا يريد إدخالنا إلى العنبر الذي خرجنا منه ..
قال عزيز :
ـ افرض أن الرئيس لم يطلق سراحنا ، فمن المؤكد أن الأميركيين كانوا سيفعلون ، أو أننا سنخرج ونحطم السجن ، أليس هذا ما كان سيحدث ؟
قال عباس :
ـ مهما يكن من أمر ، سواء أ كانوا سيطلقون سراحنا أم نخرج نحن أم يكون للأمر معنى جديد فإن الوعد وعد ، والرجل الرجل لا يبحث عن مسوغات للتراجع ، فالتراجع لا يعني غير الجبن والخوف .. نحن لسنا بسياسيين ولا نريد أن نكون كذلك ، لكننا رجال ارتبطنا بوعد في لحظة صادقة أو كاذبة ، علينا إذن أن نفي بهذا الوعد .. وعلى قدر صعوبته تكمن قيمته ، وإن رفضتم ، فإني سأقوم بالمهمة وحدي ، وعندها لا أنتظر

من أي منكم أن يسمي نفسه رجـــلا أمامي ..
تدافعت الكلمات والشتائم والإشارات ، لتهدأ بعد حين ، وينتهي الأمر بالتزام الزملاء بوعدهم ..
أقيم الاحتفال ..
رصاص ينطلق من كل مكان ..
مكبرات صوت ، وغناء متواصل ..
طعام على الطرقات ..
ومن يعرف المدينة يدرك أن الرصاصة الواحدة تحرض أختها على الانطلاق ..
وهكذا انتشر الرصاص من شارع إلى شارع ..
ومن بيت إلى بيت ..
فثمة من أطلق تحية
وثمة من أطلق غضبا
وثمة من أطلق تحديا وثمة من أطلق عارفا
وثمة من أطلق جاهلا
أما الحقيقة فكانت ضحكات تبادلها الزملاء ، ووعدا تحللوا منه ..
تذكر عباس ذلك ، وهو يبحث عن ملجأ آمن ينام فيه ..

* * *

بغريزته أدرك جاسم / بعد أن ترك زملاءه على السطح / إن للأمر الذي تم استدراجه إليه ما يليه ..
صرخ على شاب نحيل كان يأكل ويتكلم في آن واحد ، أن يتبعه ..
ساد سكون غريب ، فكل من سمع صرخة جاسم ، ورأى نظرته ، تمثلت أمامه صورة الواقع بكل قبحه وقسوته ..
قفز الشاب النحيل ـ هامل ـ واتجه إلى جاسم الذي سحبه من يده إلى أحد أركان البيت ، وبعد حديث أحال وجه هامل إلى عينين واسعتين فزعتين ، وأحال جسده إلى كتلة عصبية غير قادرة على الثبات ، توجه إلى مخبأ في البيت ، وأخرج قاذفة صواريخ تحمل على الكتف مع صاروخين وحشوتهما الدافعة ، ثم عاد ، وسلمها إلى جاسم الذي تناولها مبتسما .. سلّم بندقيته إلى هامل الذي استأذنه ليجلب صفيحة من البنزين..
خرج جاسم الريس وهامل من البيت باتجاه يقود إلى موقع خلف المكان الذي تركن فيه الدبابة الأميركية ..
كان الظلام يثقل ، ويغطي المساحات الرخوة مع كل خطوة أخرى باتجاه الهدف ، لكن جاسما لم يستطع برغم الظلام والخوف أن يقاوم خاطرا بدأ بالإلحاح عليه ، ذلك أنه يتوقع بل هو موقن أن زميله أسمر ياقو يوغر قلب عباس الحربة بالحقد عليه .. لا ،

إنه ليس الحقد أو الكراهية فهما أمران أقرب إليه من سماع وقع خطواته ..
إن ما يلح عليه تحديدا أن ثمة مؤامرة يشعل فتيلها أسمر ياقو ، وسينفذها عباس حال نجاح عمليته ..
شعر برجفة بصق على إثرها في الهواء ، فتناثر اللعاب ، واستقر بعض منه على وجه هامل الذي انتفض وهو يسأل ، فأشار إليه عباس أن يركز على كل خطوة لقنها إياها ، ولا مجال لأية أخطاء ..
واصلا السير ، وعباس يحدث نفسه أن لا عشاء هذه الليلة ..
ما أن اقتربا من الهدف ، حتى همس في أذن هامل ليأخذ موقعه في مدخل سوق الشورجة خلف حاوية النفايات الكبيرة ، ثم أخذ يراقب حركة هامل السريعة الرشيقة ، فابتسم ، وحدث نفسه إنها فورة الشباب وسحره ..
بين أعمدة البنايات تقدم عباس ، وقد جهز قاذفته .. إنه يعرف من تجربته أن لحامل القاذفة رمية واحدة ، إما أن يصيب فيها الهدف ويحرقه أو يدفع حياته ثمنا لأي خطأ في التسديد ، ذلك أن نيران الدبابة ستمزقه بكل تأكيد ..
صحيح إنه يحمل صاروخين ، الثاني حمله احتياطا لا أكثر ، ففي حالات كثيرة يفشل الصاروخ الأول في الانطلاق ..
وجد عباس نفسه يقول :
- وقد يفشل أسمر ياقو في إشعال فتيل المؤامرة ..
في تلك اللحظة تذكر عملية نفذها مع أسمر .. كانت عملية سرقة سيارة، حوصرت ، فارتعب سائقها ، وهو يرى أسلحتهما موجهة إليه ..
توسل إليهما ، والتمسهما أن يأخذا السيارة دون أن يؤذياه ، الأمر الذي كان لا يفكر بغيره .. لكن أسمر طلب من السائق الاستلقاء على الأرض ، ثم سحب أقسام مسدسه .. حينها صرخ جاسم أن يترك الرجل .. لم يأبه أسمر ، وأطلق الرصاص لتغيب صرخات الرجل وتوسلاته في دم أحمر ..
غلى الدم في عروق جاسم ، لكنه اعتصم بالصمت ، وبعد ساعات من عملية السرقة والقتل ، أمسك أسمر ذراع جاسم ، وقال بصوت ذي صدى ، وكأنه ينطلق من أنبوبة معدنية صلدة :
- لا أظنك تتمنى أن تشاهد الرجل وهو يشير إليك ، ويحكم الحبل حول عنقك في مركز للشرطة .. ما فعلته هو أنني جعلت مثل هذه الحالة مستحيلة ، فكفاك طحنا لدواخلك ، وكأنك أرملة ..
حين حاول جاسم الرد عليه ، أسكته بإشارة من يده ، وهو يقول :
- لا عذارى في المواخير ..
كان جاسم في نقطة لا تبعد أكثر من مائتي متر عن الدبابة ، حين اصطدم رأسه بالعمود الكونكريتي الذي يستند إليه إثر انفجار هائل رفع الكتلة الجبارة للدبابة وأمالها

جانبا ، وهي تنفث لهبا ..
أصيب بالدوار ، فهو لم يطلق .. تحسس وضع الصاروخ في القاذفة ، فوجده على حاله .. ما الأمر إذن ؟
ماهي إلا دقيقة حتى شبت النار في حاوية النفايات ..إنه هامل ، وهو شيء حقيقي يعرفه .. انطلقت نيران غزيرة من دبابة أخرى لم يكن قد شاهدها قبلا باتجاه حاوية النفايات المحترقة .. قرر الانسحاب ، والعودة إلى البيت في الوقت الذي دوى فيه انفجار أصاب الدبابة الثانية ..
رأى النيران تلتهم الجنود الذين قفزوا من الدبابة ليسقط بعضهم عند سرفاتها ، ويهيم الآخر على وجهه ..
من زقاق تغرقه الظلمة خرجت سيارة صغيرة ، نظر باتجاهها ، فصرخ فيه السائق أن يستقلها على الفور ، فالقوات الأميركية قادمة ، وستقطع كل المنافذ ..
دون وعي أو قدرة على التفكير ، جلس جاسم على المقعد الأمامي للسيارة التي انطلقت بأكبر من حجمها قوة وفعالية .. كانت السيارة تبتعد وأصوات الانفجارات ودوي مدافع الدبابات تتواصل ..
قال السائق :
ـ وصل الأميركيون ..أرجو أن يستطيع الشباب الابتعاد عن الموقع ..
ودون أن يوجه جاسم أي سؤال أدرك أن السائق ينتظر في نقطة لا يتوقع أن يتم الانسحاب عبرها ، لكنها وضعت للطوارئ ، فكانت وسيلته للهرب أو الشرك الذي وقع فيه ..
وصلت السيارة إلى مدخل زقاق يتفرع من ساحة السباع ، ثمة صحا جاسم على نفسه ، فطلب من السائق إنزاله .. اندهش السائق وهو يقول بأن التعليمات تقتضي أن نلتحق جميعا بالمخبأ .. أجابه جاسم بحزم إنه سينزل الآن وعليه أن يوصل القاذفة إلى المخبأ ، وسيلتحق بهم ..
تابع السيارة وهي تنطلق باتجاه المخبأ الذي يجهل كل شيء عنه .. أخذ يفكر ، فلم يستطع الوصول إلى تقويم صحيح للحالة ..
أكان ما حدث إنقاذا له ؟
أم فرصة سرقها آخرون ؟
من الواضح إنهم من رجال المقاومة ، ويبدو أنهم لا يعرفون بعضهم بعضا جيدا ، وإلا كيف يفسر تصرف سائق السيارة معه ؟
أما كان الأجدى أن يطلق صاروخه على الدبابة وإن كانت محترقة ، ويعود إلى زملائه يقرأ في أعينهم فعله ؟
وماذا عن هامل ؟
كيف سيشرح الأمر للمنتظرين في البيت ؟

شعر بشيء أشبه ما يكون بالصداع ، فأخذ يمشي حتى أصبح أمام بيت شبه مهدم .. ركل الباب ، ودخل ..

أنى لجاسم أن يدرك أن السائق عندما ذهب إلى المخبأ ، روى دوره في نقل مقاتل يحمل قاذفة من موقع المعركة إلى ساحة السباع ، تعجب الحاضرون ، وهم يتساءلون عن هويته التي حددها كبيرهم :

ـ لا تعجبوا ، إنه عراقي شريف دفعته غيرته إلى المساهمة ، وبرغم أنه لم يقم بفعل محدد ، أثبت أن جذورنا في كل مكان ..

يبدو أن كلمات الرجل فعلت فعلها في إقناع المقاتلين الذين لم يكن أمامهم أو أمام مسؤولهم إمكانية معرفة الحقيقة التي تخنقها المدينة بالتغاضي والنسيان ..

# الفصل الثـاني

مِمَ يهرب الإنسان ؟
ثمَةَ اقتراحات عديدة لإجابة تتوافر على إحاطة ..
يمكن القول إن الإنسان :
يهرب تخلصا من أمر ما ..
يهرب من جدران سجن أو أسلاك معتقل ..
يهرب من جوعٍ أو عطش ..

يهرب من خوف أو ألم ..
يهرب من عري أو فضيحة ..
يهرب من عقاب أو ملاحقة ..
يهرب من وشاية أو تهمة ..
يهرب من خطر أو رعب ..
يهرب من عوز أو إفلاس ..
يهرب من جدب وقلة حيلة ..
يهرب من فشل أو إخفاق ..

هذه الاقتراحات جميعها تركز على الأسباب في المكان الذي ينوي الإنسان الهرب منه ، وأية قراءة منصفة لهذه الأسباب لا تقود إلى إعطاء تميز إيجابي للهارب ، ذلك أن الفعل مطعون بدلالات كونتها الاستخدامات اللغوية للفعل منذ اليوم الذي بدأ أول عربي الحديث بلغته ، ومن الممكن جدا أن يكون للفعل ـ هرب ـ استخدامات مشابهة أيضا في اللغات الأخرى ..

وإذا ما تم تغيير صيغة الجملة من :

يهرب الإنسان من ..
إلى
يهرب الإنسان إلى ..

نجد أن مساحة إضافية أو رؤية متسعة الزاوية قد تنتج من هذا التغيير ، فيمكن القول :

إن الإنسان :

يهرب إلى الحرية ..
يهرب إلى الاستقرار ..
يهرب إلى عيشة متوازنة ..
يهرب إلى الأمل ..
يهرب إلى فرص اقتصادية أو سياسية أو ثقافية ..
يهرب إلى دور جديد ..
يهرب إلى أمن ..
يهرب إلى واقع جديد ..
يهرب إلى ظروف جديدة ..

من الواضح أن الانتقال إلى المكان الذي ينوي الإنسان الهرب إليه ، يعطي دلالات جديدة ومغايرة للدلالات الأولى ..

فعلى الرغم من استخدام الفعل المطعون ذاته ، فإن ما يترشح من دلالات جديدة جديرة بقراءة عميقة ..

ماذا إذا قرر إنسان ما التمادي في اللعب أو التفكير أو التأمل ليسأل :
كيف يهرب الإنسان ؟
متى يهرب ؟
من يهرب ؟
من المؤكد أن مساحات غير محدودة ستنفتح وتقود إلى أحد أمرين :
الأول : إغراق الأصل بالتفاصيل ..
الثاني : تكوين رؤية متسعة الزاوية تتوفر لها الإحاطة والعمق ، وتنفتح على أفكار واتجاهات ومدارس ..
أفكار .. اتجاهات .. مدارس
ردد السياسي هذه الكلمات ، واستغرق من جديد في تأملاته ..
كيف يصنف نفسه ؟
وهل من رؤية قادرة على الإجابة عن حمى أحاسيسه وتأملاته تلك التي يسعى جاهدا للحفاظ على مستوى من الاتزان في مناقشتها أو تلك التي تعصف فلا يكون الاتزان أو الموضوعية سوى كلمتين من غير عمق يوثق تأثيراتهما الفعلية في نفس السياسي الذي عرف وجرب .. سمع ورأى .. عانى وفعل ..؟
تساؤل يفضح تلاطم الأمواج ، ويدمر نقاء التمييز المباشر ، والإجابة الواثقة الممتلئة بالإيمان ..
عندما يتشابه الخير و الشر ، تفقد القاعدة قدرتها على تحمل بناء يستعصي على التقويم المقنع ..
كان السياسي يحدث نفسه .. كان يعدها باتخاذ قرار .. إنه يدرك / ذلك نتاج خبرته / أن القرار يفقد صفته دون خيارات عديدة ، ودون امتحان هذه الخيارات في مصداقيتها والأسس التي تقوم عليها ..
فأية خيارات يمكن أن يعرضها ، ويتخذ القرار في اعتماد إحداها ؟!
لو كانت أي من الاقتراحات التي فكر فيها ، وهو يتأمل وضعه كهارب من نظامه السياسي ، تلقى مصداقية في نفسه لسهل عليه التفكير في إنهاء حالة الهرب ..
كل ما فكر فيه ، واستطاعت مخيلته أن تحصيه من أسئلة يطعن بها فعل الهرب لكشف الجوهر ، لا تنطبق على حالته ، هذا ما يشعر به ، ويملك من الأسباب ما يجعل الدفاع عن شعوره أمرا ممكنا ..
كان جالسا في شرفة دارته في باريس ، يواجه حديقة حسنة التنظيم.. التفت إلى يمينه ، وجد خادمته الفلبينية تنظر باتجاهه .. ابتسم ، وشعر بطريقة ما أن الخادمة تتعاطف معه بل تعطف عليه ..
ولما لم يكن يملك جرأة مناقشة ذلك مع الخادمة ، طلب منها فنجان قهوة ، وعاد للنظر إلى حديقته ..

فجأة قفز سؤال إلى ذهنه .. شعر بوجل ، ذلك أنه تذكر إن الأسئلة المفاجئة التي تنطلق دون مناسبة أو استدعاء ، تنبئ بحالة نفسية غير مستقرة ، وتستدعي العناية ..

كيف تموت الأشجار ؟

كان السؤال مضحكا ، ويبدو أن السياسي كان يضحك ، ففهمت الخادمة التي تحمل فنجان القهوة أن سيدها يشكرها بطريقة متميزة ، فازدادت إنحناءاتها ، وعدد الخطوات التي مشتها إلى الخلف دون أن تستدير لتكسب لحظات إضافية من زمن رؤية الوجه الضاحك لسيدها ..

لكل شيء زمن ..

عندما تخفق جذور الأشجار في امتصاص الماء تموت ..

عندما تخفق الأوراق في القيام بوظائفها تموت ..

عندما تنخر الديدان جذع الشجرة تموت ..

فكر السياسي .. إنه ليس شجرة ، وهو لا يعرف على وجه التحديد أيريحه هذا الخاطر أم يزعجه ؟

ولأنه ليس كذلك ، فإن زمنه يختلف عن زمن الشجرة ..

قد يكون زمنه معنيا بلحظة ولادته إلى لحظة موته ، وقد يكون وظيفته أو دوره ..

إنه يمتلك فهما أو تعريفا لزمنه ، وتمتلك عائلته تعريفا يقترب أو يبتعد ، لكنه يظل في الإطار نفسه ..

أما من يتعامل معهم ، فإنهم يمتلكون تعريفا أو فهما مغايرا ..

ذلك ما قدره دون أن يناقش مشروعية الفهم أو التعريف ..

الآخرون يهتمون بدوره .. بوظيفته .. بما تتيحانه من تأثير، ومن الخطأ التفكير بدور واحد لأن أي دور محكوم بزمنه أيضا ، وزمن الأدوار يتعلق بالتاريخ ولا يتعلق بالجغرافية .. إنه يتعلق بالتحول والتغيير وليس بالثبات ..

تقدمت الخادمة ، وأخبرته بأن زوجته اتصلت هاتفيا وقالت بأنها ستتأخر لأنها مدعوة لتناول الغداء مع صديقاتها ..

نظر السياسي ببلاهة إلى الخادمة ، وسأل عن ابنته أمل ، فأجابت بأنها عادت من المدرسة ، وتناولت غداءها ، وهي الآن في غرفتها ، وتساءلت عن رغبة سيدها في موعد تناول غدائه ، فأجاب باقتضاب أن تؤجل ذلك ..

في فترة ما بعد الحرب الأخيرة ، كانت زوجته نسرين تلاحقه بالأسئلة عن موعد عودتهم ، وفي كل مرة ، وعندما لا تحظى بموعد محدد ، كانت تردد أنها لا تستطيع فهم موقفه أو دوافعه ..

كان السياسي - بشار - يشعر بطريقة ما أن زوجته تعد نفسها ، وكأنها ذاهبة إلى احتفال هي ضيفة الشرف فيه ، وكان يشعر بخجل حقيقي عندما يفكر أن فهمها يحاول

استثمار دور ملفق يصورها مناضلة كبيرة من أجل التغيير ، وهي ليست أكثر من امرأة غارقة في التماهي مع صورة غير واضحة عن زوجها وتأثيراته ..
في يوم ما ، وبعدما تمادت الزوجة في الإلحاح على زوجها للقيام بزيارة إلى الوطن ، صرخ بشار :
ـ أي وطن تقصدين ؟
تذكرت المرأة أنهم يحملون جنسية البلد الذي يقيمون فيه ، فقالت :
ـ على الرغم من كل شيء ، لا يمكن أن ننسى أننا من أصل عراقي ، وأهلنا يعيشون هناك ، هل الأمر بحاجة إلى مناقشة ؟
قال الزوج بهدوء :
ـ حسنا ، هل تستطيعين العيش في بيت تنقطع عنه القوة الكهربائية اثنتي عشرة ساعة يوميا على أحسن تقدير ؟
ـ إنهم يبالغون في ذلك ..
ـ وهل تستطيعين العيش في ظل غياب كامل للأمن والنظام والقانون ، بحيث يستطيع أي سارق أو قاتل أن يستهدفك دون أن يجد ما يردعه ؟
ـ إنك تردد دعايات الذين يكرهون التغيير ، وهذا يتناقض مع وضعك السياسي والاعتباري ..
ـ حسنا ، ذهابك يعني أنك ستمكثين في البيت ، وفي أفضل الأحوال يمكن زيارة قريب أو صديق ، على أن تتم العودة قبل حلول الظلام ..
ـ إنك تعتبر بغداد غابة ..
ـ لا.. أنا أعتبر أن النظام السياسي السابق لم يسقط فحسب بل سقطت الدولة ، والدولة يا سيدتي تعني كل شيء من مركز الشرطة إلى المركز البلدي إلى نظام المرور إلى دوائـــر الخدمات ، هل فهمت ؟
ـ الحق أقول أنني لم أفهم سوى أنك تخفي أسبابا أخرى تحول دون عودتنا أو حتى القيام بزيارة ..
فاجأته جملة / إنك تخفي أسبابا أخرى / سكت ..
عرفت نسرين من الملامح الشاردة لبشار أنه غير راغب في الاستمرار بالحديث ، وهو على وشك فقدان كياسته المعهودة .. غادرت المكان ، فبقي يستعرض شرائط مغبرة في ذاكرة عمل الزمن على تجفيف ألوانها ..
فيما مضى كان بشار البصير شابا لامعا .. يحتفظ بسجل مشرف من إنجازات تشمل / تفوقا دراسيا ومستوى أخلاقيا عاليا وقدرة على التصرف السليم في ظروف معقدة وإنتماء سياسيا غير مطعون بإنتهازية أو وصولية أو تجاوز على قيم / هذا السجل أهله لتقدم وظيفي سريع ، وتقدم حزبي يحظى بمباركة رفاقه ..
تزوج بشار من شابة جميلة تشاركه الانتماء السياسي ، والرغبة في عمل يستقطب

الأضواء ، فكانت نسرين امرأة روضها الزواج ، ففقدت اهتماماتها السياسية ، لتظهر اهتمامات أخرى يكمن جوهرها في تصرفات وأخلاقيات جديدة تعتمد على الرخاء وجريان المال في الأيدي العطشى ، والرغبة في التسلط ..

لم يكن بشار غافلا عن التغير التدريجي الذي طرأ على نسرين ، لكن ثمن حياة مستقلة وشخصية يدفع على شكل تشجيع الزوجة على الاهتمام بأي شيء يضمن عدم ملاحقتها له ..

مع تقدم بشار الحزبي والوظيفي بدأ يشعر بضغوط من نوع جديد قوامها انحراف في الرغبة من الاهتمام بوضعه الشخصي وعلاقاته والحرص على تدعيمها إلى الاهتمام بالشأن العام ، ولا شك أن اهتمامه الجديد ينطلق من تأثيرات قراءته للخريطة السياسية ، فضلا عن قراءات زملائه وأصدقائه ..

في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات الحزبية كان بشار معارضا من الداخل ، ومعارضته كانت قوية بسبب صعوبة إستهدافه أو التشكيك في مواقفه وآرائه ..

لم يمض وقت طويل حتى كان اسم بشار معروفا من القيادات السياسية والإدارية ، وبحكم الخلافات والتناقضات التي تحملها أية قيادة الظاهرة منها أو المخفية كان الرهان على كسب موقف بشار مطلوبا من الجميع.. فعندما يتحدث بشار في مؤتمر ما ، فإنه يحظى بإصغاء عميق .. وهذا هو بالضبط ما جعله في دائرة اهتمام ذوي السلطة والطموح والبرامج الخاصة ..

وإذ أدرك بشار ذلك ، عرف أنه يعمل منفردا ، والاستمرار في هذا النهج لا يعني سوى انتظار رصاصة طائشة أو حادث دهس أو الوقوع ضحية مؤامرة حسنة التنظيم والإعداد ..

ما الحلول المطروحة أمامه ؟

لم تكن هذه الحلول كثيرة أو سهلة ..

يمكن بيع مواقفه للجانب القوي المنتصر ، ذلك ضد أخلاقياته ..

يمكن مؤازرة الخط النضالي المبدئي والنظيف في الحركة ، وذلك يجعله هدفا ..

يمكن الانسحاب التدريجي ، ولكن كيف يسوق ذلك أو يسوغه ؟

سقطت الشفافية ، وسقط النقاء ، وسقط الصفاء ، وتشوهت الأهداف، أما الوسائل فمن المخجل حقا أن يحتمل دناءتها وتسويغاتها المصلحية ..

استضيف بشار في أمسية مغبرة لحضور اجتماع طارئ عقد لمناقشة تصرفات أحد رفاقه في التنظيم ، وكان معروفا بصدقه وقدرته على التأثير الإيجابي في الآخرين ، ولأنه كذلك وقع ضحية مؤامرة قوامها إعداد تسجيل بصوته يفضح فيه بعض الإجراءات والقرارات المتخذة ..

أدرك بشار بعد زمن قليل من بدء الاجتماع أن القرار متخذ ، والأمر ليس سوى محاولة إعطاء مصداقية أو صيغـة حزبية مقبولة لإعلانه ..

كان صامتا ، لكن المسؤول أصر على سماع رأيــه وتقويمه للموضوع ..
أدرك أن مصداقيته على المحك ، بل أن شرفه الشخصي في امتحان ، فتحدث وتحدث ، وبين عيون اتسعت بفعل الدهشة وبين وجوه شاحبة ، تدفقت كلمات بشار ليعلن أنهم الآن يحاكمون فكر الحزب ، ويستهدفون المساحات النظيفة غير الملوثة فيه ..
فجأة فقد الرغبة في الحديث ، وبعد لحظات صعبة تحدث المسؤول ، فأشار إلى أنه لا يعرف بالضبط دوافع حديث بشار ، لكن الأمر خرج عن مساره الحزبي الطبيعي ، والأولى أن يحاسب الرفيق بشار قبل محاسبة الرفيق الذي عقد الاجتماع من أجله ..
تدخل أحدهم ، فقال إن حرص بشار فوق الشبهات , وإنه يقترح تأجيل الاجتماع إلى مناسبة أخرى لكسب الوقت ، وعدم التسرع في إجراءات قد يندمون عليها ..
رفع الاجتماع ..
لكن بشارا لم يعد كما كان قبل الاجتماع .. صحيح أن أحدا لم يستهدفه بإجراء عقابي، لكنه تجاوز خطا أحمر في دواخله ، ومن الصعب أن يعود عنه أو يوافق الآخرون على عودته ..
صاحت أمل بصوت منغم :
ـ ماذا يفعل البابا الجميل ؟
ضحك بشار في جلسته تلك ، وأجاب :
ـ إنه ينتظر قبلة من ابنته الفاتنة ..
طوقت أمل عنق أبيها ، وقبلته ، قالت :
ـ هناك من ينتظرك على الهاتف ..
ـ من ؟
ـ إنه العم خالد ..
في هذه اللحظة تقدمت الخادمة حاملة جهاز الهاتف ، امتدت يده إلى السماعة ، وقال:
ـ ما الذي ذكرك بنا ؟
انطلقت أمل إلى الحديقة ، وعادت بعد قليل ، وهي تحمل غصنا أخضر.. سمعت أباها يقول :
ـ سنتحدث ونحن ننتقل من حانة لأخرى .. هذه هي رغبتك ، أليس كذلك ؟
أغلق السماعة ، سألت أمل :
ـ هل ستخرج أنت أيضا ؟
كانت تشير إلى خروج أمها ، فقال :
ـ لا .. أنا مع جميلتي ، ولن أخرج إلا في الليل ، وستكون أمك عائدة ..
ولدت أمل في خريف عام ١٩٩٠ ، كان مع صديقه خالد ينتظران في المستشفى ، وعندما عرف خالــد أن نسرين رزقت بطفلة ، سأل بمكر :

ـ هل ستسميها نداء انسجاما مع دخول القوات إلى الكويت ؟
ـ لا يا صديقي ، فبرغم كل الظلمة والحمق والحقد سأسميها ـ أمل ـ ما رأيك ؟
ـ أحسنت الاختيار .. إننا نحتاج إلى أمل ..
ـ ومن لا يحتاجه ؟

تذكر بشار هذا الحديث ، وشعر أن السنوات تتحمل أكثر من قدرتها على اختزان الأحداث ، وفكر أن السنوات مختلفة باختلاف الشعوب والبيئات.. سنة المواطن الغربي بحيرة صافية ، يستطيع أن يرى تفاصيلها ، ويستطيع أن يحدد موعد إجازته ، وأين سيقضيها ؟ وكم ستكلف ؟ ومن سيصحبه فيها ؟

أما المواطن العراقي فإنه يجهل تماما ماذا سيحدث في الغد ، ولا يستطيع أن يخطط لعشائه ، فكيف تتساوى السنوات ؟

سنة العراقي نهر متعرج يشهد عاصفة وتدفقا بأكثر من قدرة حوضه على التحمل .. فأية قدرة أو طاقة يحملها العراقي ليتحمل رعب زمنه الموشوم بالقسوة ؟

إنه الإخلاص للحياة ، وقوة الإخلاص لا تقاس إلا بالقدرة على التحمل والتضحية ..

كيف يتحمل أي إنسان مجرد سماع أحداث ومشاهد لا تنتمي إلى أي حس إنساني ؟

في عيد الفطر ، وبالتحديد في ثالث أيامه ، اتصل بشار بأخيه الساكن في بغداد مهنئا ، وبعد أقل من دقيقة من حديث عن الأهل ، تحدث الأخ عن حادثة شاهدها صباح اليوم نفسه .. قال :

ـ كنت عالقا في ازدحام مروري في منطقة الحارثية ، حين رأيت رجلا مع زوجته وطفلة لا تتجاوز السادسة من العمر قرب ألعاب للأطفال، في اللحظة هذه تقدمت سيارة لا تحمل لوحات تسجيل ، في داخلها ثلاثة شباب . كانت تسير على الرصيف .. وحين اقتربت من العائلة فتح أحدهم الباب الخلفي للسيارة ، وسحب الزوجة إلى داخلها .. صرخت الزوجة ، وهجم الزوج على الخاطف ، فتلقى رصاصة في كتفه ، سقط ثم نهض مواصلا هجومه على الخاطفين ، فأفرغوا مخزن رشاشة في صدره . سقط صريعا يتخبط بدمه وسط صراخ الطفلة والزوجة ..

ارتمت الطفلة على جثة أبيها ، أما الخاطفون فقد واصلوا خطف الزوجة الجميلة ، انطلقت السيارة ، وهي تطلق رصاصات تهديد لأي تدخل محتمل ..

حدث هذا والوقت ضحى ، ولم يجرؤ أحد على الوقوف بوجه هؤلاء المجرمين ..

ارتعشت يد بشار وهي ممسكة بسماعة الهاتف ، قال :

ـ أين الشرطة .. أين أخلاق الناس ؟

قال الأخ :

ـ لا وجود للشرطة ، والناس خائفون ، وهم ليسوا بمسلحين ليستطيعوا مواجهة المجرمين .. إن المواطن يخشى حمل السلاح كي لا يتعرض إلى تفتيش مفاجئ من دورية أميركية أو عراقية ..

- والمجرمون؟
- إنهم أحرار ، وهم في وضع ذهبي ..
- أي عيد هذا ؟
- أنا آسف ، أنت من حاول التهنئة ..
- ماذا تقصد ؟
- لا تصح التهنئة للعراقيين ..

نعم ، يدرك السياسي بشار المأساة ، مأساة الماضي والحاضر .. فإذا ما سمع كلمات زوجته بالعودة أو كلمات الآخرين ، فهل سيسمح له أحد أن يظهر على شاشة التلفاز ، ويقوم بأمر واحد لا غير هو أن يبكي ويبكي..

يبكي سنوات الماضي اللئيم ..

يبكي سنوات الحاضر المرعب ..

ويبكي سنوات المستقبل المطعونة بتأثيرات الحاضر والماضي ..

وإذا ما بكى ، فماذا يعني ذلك ؟

وكيف سيفهم ؟

هل سيدعو الآخرين إلى تشكيل نهر من الدموع لغسل الخطايا ؟!

*　　*　　*

بعد الاجتماع الذي انفجر فيه بشار ، لم يعقد اجتماع آخر لمناقشة حديث بشار أو تصرفات الرفيق الذي عقد الاجتماع من أجله ، لكنه كان يعرف أن الأمر لم ينته ، وإنه يناقش في كواليس ضيقة أو جلسات خاصة ..

لم يدم ذلك طويلا ، فقد صدر قرار حزبي بأن يتولى بشار البصير مسؤولية التنظيم الحزبي في فرنسا ..

عد بعضهم القرار ترقية يستحقها بشار ..

وعدها آخرون إبعادا أو نفيا له ..

أما بشار فقد شعر براحة قوامها الابتعاد عن جو لا يشعر بالانسجام أو التوافق معه ..

في باريس ، كانت الحياة مختلفة ..

ليل طويل جميل بعينين متألقتين لا تطرفان ألا مكــراً أو دعوة لغواية ..

حانات تروي حكايات تتداخل أحداثها وأبطالها ، فيغيب الأصل كأسطورة..

ثقافة تتسع للرأي الآخر ..

محلات ، ودور أزياء ، وعطور تستقطب اهتمام العالم ، كما تستقطب الزهور النحل

..

باريس كانت محطة اغتسل فيها ، وعصر روحه كاسفنجة ، ثم تركها تمتص الجذور الحية للحياة الجديدة ..

شيء واحد كان يخدش أذنيه ، ويربك صفاء نظراته ، هو التفاصيل التي تحاول إغراقه في عمل يدرك إنه متأثر بالوجه القبيح للسياسة ، فبرغم الأهداف التي يؤمن بها ، والأفكار التي يسعى من أجل أن تجد صداها العملي ، فإنه كان مثقلا بالإحساس بالكذب والإدعاء والتلون ، ففي السفارة التي يتخذ منها مقرا لعمله ، ويحمل صفته الدبلوماسية اعتمادا عليها ، لم يستطع التعود أو الانسجام مع شعور يقوى إثر لقائه بالموظفين .. شعور يجرح إنسانيته ، قوامه أن موظفي السفارة يعملون وكأنهم يحاولون الحفاظ على امتياز لا يستحقونه ، لذلك فهم على استعداد لمنح ثمن إضافي يكمن في تقديم خدمات ووشايات هدفها تعزيز مواقعهم ..

ما أن حاول بشار معالجة هذه الحالة أو حالات مشابهة ، حتى أدرك آسفا أن الكلمات والمعاني التي يسمعونها غير قادرة على النفاذ إلى نفوسهم ، وأنهم يعدونها محض كلمات يسوق فيها المسؤول استحقاقات منصبه ..

لماذا يحدث ذلك ؟

إنه نتيجة وليس سببا .. نتيجة يعرف بشار إن جذورها تكمن في اللحظة التي حاول فيها أول مسؤول استغلال قوته في تأكيد امتياز عده حقا له ..

وفي باريس تيقن أن عشرات بل مئات الشخصيات الزائرة التي تأتي من البلد على شكل وفود تحت أغطية مهمات وواجبات وأعمال ، تأتي لأجل التسلية والاستمتاع بفرص خلقوها لأنفسهم أو خلقها لهم آخرون دون أن يكون لها رصيد فعلي في تحقيق هدف أو منفعة ..

في حديث مع أحد سفراء بلاده ، قال السفير :

ـ الكل يعرف ذلك ، وثمة نكتة قديمة تقول : إذا كان طريقك إلى الكويت ، فاجعل خط سيرك بغداد ـ باريس ـ الكويت ، وكتب زميل ملاحظة إلى وزارته حول ذلك ، فكان الاتهام جاهزا : إنه يحاول أن ينفرد بالمتعة والامتيازات ..

وأضاف السفير :

ـ هل تعلم أن وكيل وزارة ومديرين عامين زاروا باريس تحت غطاء تسليم دعوات إلى مثقفين وشعراء لحضور مهرجان يقام في بغداد ؟!

سأل بشار ضاحكا :

ـ وهل سلموها فعلا ؟

قال السفير :

ـ لا .. تركوها في السفارة ليقوم أحد المستخدمين المحليين بتوزيعها..

في أحيان كثيرة تخفق الصورة القريبة في تكوين فكرة أو رأي ، وتنجح الصورة البعيدة في إظهـــار مكونات لا تضمها الصورة القريبة ..
التقى بشار البصير بمسؤولين كثيرين ، وقياديين بمستويات مختلفة ، وكانوا عندما ينطلقون في ليل باريس ومطاعمها ومراقصها ،يؤكدون فكرة قوامها أن البعد المكاني يخلق بعدا نفسيا لا ينسجم مع موقع المسؤول وصفته ..
ما أن ينفرد مع أحدهم حتى تبدأ الشكوى ، وتنهال الملاحظات الصحيحة أو الخاطئة ، وكأن المتحدث ليس جزءا من الحالة ، أو إنه مضطر للموافقة عليها خوفا من عقاب وشيك ..
عرف أن مشكلة عميقة تغرس جذورها في بناء يوحي بالقوة ، وهو يتعرض للنخر كل يوم ..
بعده وموقعه أصبحا محطة يعصر فيها القادمون أنفسهم ، فلا تكون النتيجة سوى صداع ورغبة في التقيؤ ..
لقاءات كثيرة ، ودعوات أكثر ، وأحداث لا نهاية لها ، وتوقعات تثير الدهشة ، هذا ما كان يثقل المنهاج اليومي لبشار في باريس ..
إنه يذكر حادثة آلمته في حينها ، وجعلته يفتح عينيه على هاوية سوداء تحيق به .. زاره مسؤول عراقي يعمل في دولة أوربية ، وجمعتهما جلسة في مطعم ، انضم إليها فيما بعد موظف عربي يعمل في مؤسسة إعلامية عراقية .. دارت أحاديث متنوعة ، حتى انطلق صوت الموظف العربي منتقدا ومستنكرا دخول قطعات الجيش العراقي إلى الكويت ، وساخرا من طريقة إعلان الخبر ..
وبرغم أن المتحدث لم يقل شيئا جديدا خارج قناعة الرجلين الجالسين ، فقد حاولا تجاوز موضوع الحديث ، والانتهاء من الدعــوة والمغادرة ..
ذهب بشار إلى بيته ، وبعد نصف ساعة من نومه ، أيقظته زوجته نسرين بإلحاح ..
قال إنه متعب ويريد النوم ، أخبرته أن ثمة من ينتظره ..
صاح إنه ليس على موعد مع أحد .. قالت برجاء : إن الرجل يرفض المغادرة قبل رؤيته ..
تحامل بشار على نفسه ، وخرج من سريره غاضبا ليجد أن صديقه المسؤول الذي كان برفقته ، ثم أوصله إلى الفندق واقفا في صالة الاستقبال ..
استغرب بشار ، ودعاه إلى الجلوس ..
قال الصديق :
ـ اغفر لي إزعاجي لك ، ولكنني مرتعب .. هل ستكتب عن الموضوع ؟
صحا بشار من تأثيرات النوم .. قال :
ـ أي موضوع ؟!

ـ هذا الذي كان الموظف العربي يثقل أسماعنا به ..
ـ لم يقل ما هو جديد .. فلماذا أكتب ؟
ـ كنا ثلاثة ، وكل سر جاوز الإثنين شائع ، وأخشى أن يصل الحديث إلى أسماع المسؤولين هناك ، فنفقد رؤوسنا .. أرجوك قل لي إن كنت ستكتب ، فسأكتب أنا أيضا ، وإن كنت لا تنوي فعل ذلك ، فليس من المروءة أن أغدر بك وأكتب ..
ـ هل وصل الأمر إلى هذا الحد ؟!
ـ إذاً أنت لا تنوي الكتابة ، وليس من المعقول أن يشي هو بنفسه ، لذلك فلن أكتب ، أردت أن أريح ضميري ، ومخاوفي أيضا ..
احتضن بشار صديقه ، وحاول تهدئته ، ولم يشعر إلا بالدموع تملأ وجهه..
ـ أهذا ما وصلنا إليه ؟
إذا كان رعب المسؤول يصل هذا الحد ، فكيف الحال مع المواطن البسيط؟

*　　　*　　　*

تناول بشار غداءه متأخرا .. جاءت نسرين وحاولت استكمال مرحها ، وأحاديثها مع صديقاتها ، لكن شرود الزوج ، وهمهماته غير المفهومة أفقده الرغبة في المواصلة ، فانسحبت ، وهي تعلق كمن لا تنتظر جوابا أو مشاركة ، قالت :
ـ هل تعرف أن صديقاتي يستغربن من تأخر عودتنا إلى البلد ..
فكر : لصديقاتها الحق في الاستغراب ، فهن لا يدركن إلا ملامح صورة هي وحدها المسؤولة عن تفاصيلها ..
عندما هرب صديقه خالد من بغداد ، واستطاع عبر ظروف وأساليب معقدة الوصول إلى باريس ، إلتقاه بشكل سري بعيدا عن العيون المتلصصة ..
ـ ماذا فعلت يا خالد ؟
ـ أنت تعرفني ، ما كنت لأفكر في الهرب لو توفر لي خيار آخر .. وجدت نفسي في ظرف أوقعني فيه القدر ، ولا يمكن لقانون أو دين أو شريعة أن تحاسبني عليه .. هرب أخي من الخدمة العسكرية ، ويبدو أنه عبر الحدود باتجاه السعودية ، هكذا يقولون ..
ـ وما علاقتك أنت ؟
ـ أنستك باريس شرائعنا .. استدعيت من قبل الاستخبارات العسكرية وبعد تحقيق سريع ، عرفوا وضعي الحزبي ، فقالوا أنهم سيفاتحون المراجع العليا ..
ـ بشأن ماذا ؟
ـ إن للهارب أخا في موقع حزبي ، وعلى هذا الأخ أن يثبت أنه لا يعرف ، ولم يخطط أو يسهل هرب أخيه .. بعد ذلك استدعتني المخابرات ، ولساعات طويلة كنت أجيب

عن أسئلة بلهاء لا يستطيع شيطان أو ملاك أن يحيط بها .. لينتهي الأمر بتوقيع تعهد بتقديم أية معلومات أو أخبار عن شقيقي الهارب إذا ما تم الاتصال بنا أو بأي فرد من أهلنا أو معارفنا ، وبعكسه سأكون مسؤولا بجرم المشاركة والخيانة..

ـ والحزب ، ألم تخبره ، وتبلغ بالحالة ؟

ـ أنت تحلم ، كان الحزب ينتظر أي إجراء من قبل الأجهزة الأمنية ليبطش بي .. إنه كيان مغلوب على أمره ..

ـ إذاً أصبحت معارضا ..

ـ وخائنا وعميلا ، إنني يا صاحبي متألم من موضوع يقلقني كثيرا ، هو أن ملاحقة من نوع جديد تطال عائلتي الآن ، والسبب الحقيقي يكمن في اعتراضي على أن أكون جاسوسا على عائلتي ، هذا الاعتراض تمثل في أضعف الإيمان وهو الهرب ..

بعد اللقاء بخالد ، عرف بشار أن معلومات أرسلت بشأنه إلى الجهات العليا في البلد ، ومن الطبيعي كما يفكر أن معلومات مثل هذه لا يمكن أن تلتزم بأية معايير ذات علاقة بالصدق أو الأمانة أو الحقيقة ..

أوقعه الأمر في دوامة انتظار عقاب لا يعرف كيف يجيئه ..

مرت الأيام ثقيلة حبلى بالتوقعات ، وفشل المنطق في إيجاد علاقات مترابطة في فهم ما يحدث أو القدرة على رسم صورة ذات مصداقية للوضع العام ..

كان البلد ينجرف مسرعا نحو هاوية مؤكدة ، ولم يكن أحد يمتلك جرأة التصريح بما يفكر ، ذلك أن الإجابة جاهزة دوما ، وهي أنه وقع ضحية الدعاية المعادية أو إنه محض شخص مرتد ، والمرتد يستحق الموت ..

قبل الحرب / عندما تذكر كلمة الحرب فإنها بحاجة إلى تعريف للدلالة ، ذلك أن حروب البلد كثيرة ، فأية حرب هي المعنية ؟! يمكن القول حرب
الشمال أو الحرب الإيرانية أو حرب الكويت أو حرب أميركا الخيارات كثيرة ! /

قبل اندلاعها بيوم واحد ، كان بشار جالسا في ذات المكان مع صديقه خالد ، لتبدأ محاورة أخرى يستكملان بها الحديث الأول ..

صاح خالد :

ـ ماذا فعلت يا بشار ؟

تذكر بشار سؤاله الأول في لقائهما ، ضحك للمفارقة ، وقال :

ـ يومها كنت تتحدث عن القدر ، وفقدان الخيارات ..

ـ هذا صحيح ، وأتوقع أن تكون ضحية شيء مماثل ..

ـ دعنا نشرب شيئا الآن ..

كانت الحانة تستقبل روادها بهدوء وسلاسة .. تابعت عينا بشار حركة النادل ، ثم توقفتا أمام وجه جميل وشفاف لفتاة جلست في ركن الحانة ، لا يدري على وجه التحديد

لمَ شعر أن الفتاة ترقبه ، وإذا ما كان معنيا بالمراقبة ، لا يمكن لمن يقوم بالمهمة أن يحمل مثل هذه الملامح الحزينة..

تلاقت العيون ، فلم يطرف لها جفن .. شعر بالراحة ، فمن يقم بالمراقبة لا يمتلك جرأة مواجهة صريحة .. ابتسم ، وطلب كأسي كونياك ..

قال خالد ::

ـ أراك قلقا .. هل أنت بانتظار شخص ما ؟

ـ لا .. كنت أتأمل وجها جميلا .. اسمع يا خالد ، ما سأقوله لك لا تعرفه زوجتي ، وأرجو أن يبقى بيننا ، فقبل أكثر من عشرة أيام تلقيت اتصالا من رجل يتحدث الإنكليزية بلكنة أميركية .. طلب مني اللقاء لأمر عاجل وخطير .. طلبت منه أية معلومات عن شخصيته أو الأمر العاجل ، فقال بأنني سأعرف ذلك عند تحقيق اللقاء ..

توقف بشار ، وجرع ما تبقى من الكأس ، ثم طلب كأسا آخر .. عندما جلب النادل الكأس الثانية .، نظر باتجاه الفتاة ذات الابتسامة الحزينة ، والوجه الجميل .. ثم واصل :

ـ فكرت بكل ما يمكن أن يتخيله مسؤول عراقي خائف في اتصال من هذا النوع ، وفي لحظات وافقت على اللقاء ..

ـ لماذا ؟

ـ شعرت أن الأمر جاد ، وعليّ أن أفهم .. ذهبت إلى الموعد المحدد لأجد رجلين لا يفشل أي سياسي أو دبلوماسي في فهم الوضع السياسي أو الأمني لهما ، يؤكد ذلك التهذيب الشديد والحركة أو اللغة المحسوبة ، ومحاولة قراءة الوجه ، والانفعالات .. كان الأول باسم جون والثاني رونالد ..

ـ ماذا قالا لك ، وكيف اقتنعت بكلامهما ؟

ـ اسمع يا خالد .. قال أحدهما ـ جون على ما أعتقد ـ بشكل صريح، ودون لبس إنهما من وكالة المخابرات المركزية الأميركية ، وإنهما يعرفان كل شيء عني ، دوري ونشاطاتي وعلاقاتي بل وقناعاتي، ولأجل ذلك فإنهما مكلفان بإبلاغي أن تقارير سيئة كتبت عني ، وأرسلت إلى بغداد ، وإنني وخلال يومين أو ثلاثة سأتسلم استدعاء عاجلا إلى هناك للتحقيق معي أو .. صمت المتحدث ولم يكمل ، فقلت : لسجني أو إعدامي .. أكمل الأميركي بأنهم يعرضون عليّ اللجوء السياسي ، والحماية الكاملة إذا ما أردت الاستمرار في العيش هنا ، وإنهم يأملون في تحقيق تعاون يضمـــن مصلحة العراق ..

ـ وهل صدقت ؟

ـ لست مغفلا أو قليل تجربة لأصدق أي كلام .. قلت لهما شكرا سأفكر في ذلك .. قدما لي بطاقة تحمل أرقام هواتف ، وذكرا أنهما سيسعدان حال تلقي أية مكالمة مني ..

ـ من المؤكد أنهما سجلا الحديث ..
ـ هذا متوقع ، وقد فعلت الشيء نفسه ..
نظر إلى الفتاة ، وجدها تكتب أو ترسم على ورقة فرشتها أمامها .. نظرت إليه فابتسمت ، ابتسم وهو يلاحظ أن خالدا ينظر إلى الخلف باتجاه الفتاة ليعرف اتجاه نظراته .. قال :
ـ حقا ، إنها جميلة .. ماذا تكتب ؟
ـ لا أظن أنها رسالة عشق لي أو لك ..
ـ دعها وشأنها .. إنني أستمع إليك ..
ـ بعد يومين من اللقاء ، جاءني موظف الجفرة في السفارة حاملا رسالة عاجلة .. كانت رسالة استدعاء فوري ..
ـ أولاد الكلب كيف عرفا بذلك ؟
ـ هذا ما فكرت فيه ، كيف عرف الأميركيان أن رسالة ستأتيني ، وكيف عرفا مضمونها ، وما يتوقع منها ؟
ـ الأمر عجيب ..
ـ حاولت عبر اتصالات هاتفية مع بعض الأصدقاء أن أعرف شيئا .. لم أحصل على إجابة ، وثمة مفارقة غريبة حصلت فقد تلقيت اتصالا من صديقة قديمة تعمل في دائرة العقارات .. كانت تسألني تقديم خدمة لأحد أقربائها ، وهو طالب يدرس في مدينة فرنسية ، وخلال الحديث ذكرت أن ضابطا من جهاز أمني جاء إلى دائرتها ، وسأل عن ممتلكاتي المسجلة لديهم ..
ـ سلسلة محكمة لجعلك تفقد القدرة على اتخاذ القرار ..
ـ وكان ما كان ..
ـ ماذا تقصد .. هل اتصلوا بك ؟
ـ أنا من اتصل بهم .. طلبت لقاءً ، وقلت لهما أنني تأكدت من صدق أقوالهما ، ولكن هذا لا يعني أن أصبح عميلا أو خائنا لوطني .. وطلبت المساعدة في استمرار حياتي وحياة عائلتي في باريس .. استنكرا الكلمات التي استخدمتها ، وقالا إن الأيام ستثبت لك حرصنا ورغبتنا في احترام كل ما يتعلـــق بك .. وهكذا أصبحت معارضا مثلك .. قال خالد :
ـ أعرف حجم الألم في دواخلك برغم الطريقة الساخرة التي تحدثت بها ..
وفجأة بكى .. شعر بشار إن خالدا يقوم بفعل نيابة عنه ، فقبل التضحية ، وبقي متماسكا ..
لا يعرف الصديقان كم مر من الوقت عندما وقف النادل وسلم بشارا مظروفا قال أن فتاة كانت جالسة في الحانة طلبت تسليمه له ..
نظر إلى الركن الذي كانت الفتاة جالسة فيه ، كانت قد غادرت المكان .. فتح الظرف ..

ثمة ورقة مطوية بعناية فرشها ليجد صورته مرسومة عليها ، وثمة حزن عميق يكاد ينطق بالألم والحسرة يطل من العينين ، وفي أسفل الصورة كتبت عبارة تقول فيها :

**يمكن للحزن أن يكون وسيلة تعارف أو محبة ..**

سأل خالد :

ـ ماذا يعني ذلك ؟

قال بشار بحزن طاغ :

ـ إنه لا يعني سوى فشل المنطق في الإقناع ..

* * *

# الفصل الثـالث

خرج بشار من دارته ليروض رجليه في مسيرة اعتاد القيام بها ، كانت قدماه ثقيلتين وهما تدرجان على رصيف تظلله أشجار دائمة الخضرة ..

فكر بمسؤوليته عن سوء الفهم المتكرر بينه وبين زوجته ، ذلك إنه لم يفكر يوما أن يضعها في حقيقة ما يعانيه أو يحسه ، وعندما حاول أن يجد تفسيرا للأمر قفزت ثمة افتراضات قوامها أنه لا يرغب أن يدخل عائلته في مشاكل وحالات قلق ، عليه أن يحافظ على مستوى شبه ثابت من الهدوء والاستقرار في حياتهم الشخصية بعيدا عن مناكفات السياسة وتقلباتها ..

هل قادت مسوغاته أو فهمه إلى تحقيق ذلك ؟

من جانبه عمل بإخلاص ، أما نسرين فإنها ليست ورقة بيضاء تستقبل ما يخطه عليها ، فتأثيرات الخارج تزرع في نفسها تساؤلات ، وتكوّن لديها انطباعات وأفكار ، وعندما لا تجد في بشار القدرة أو الرغبة في إسكات هواجسها ، تتذمر ، وتنفتح مخيلتها على استنتاجات لا تتفق مع طريقة زوجها في التفكير ..
ما أصعب الحفاظ على حالة توازن تحقق انسجاما بين حمى الداخل وهيجانه وبين الخارج : الآخرون وشروط الواقع ..
شعر بشار أن للخروج من الوطن استحقاقات يدفعها الجميع شاؤوا ذلك أم أبوا .. وأولى هذه الاستحقاقات : التخلي عن الحرية ، فبرغم كل شيء تتداعى حالة التماسك أو الثقة التي يشعر بها المواطن في وطنه ، ليجد نفسه حاملا لمجسة رادار تبعده عن مخالفة هنا أو تجاوز هناك ، وكأنه مطالب في سلوكه اليومي أن يكون حريصا على تقديس أنظمة وتعليمات ما كان ليعيرها أدنى اهتمام في وطنه ..
كان يقترب من شجرة عالية ، وقفت على مبعدة أمتار منها سيارة صغيرة ، إلى جانبها شاب وفتاة يحملان ( بطانية ) تقدما إلى أسفل الشجرة ، وأمسك كل منهما بطرفها ، وهمـــا ينظران إلى أعلى الشجرة ..
لم يلاحظ بشار شيئا على الشجرة .. أصبح على بعد خطوتين منهما ، فانفجرا بسلسلة شتائم موجهة إلى رجـــال الإطفاء والبلدية والحكومة ..
تساءل عن السبب ، فذكر الشاب أن قطة صغيرة عالقة في أعلى الشجرة، وقد اتصل برجال الإطفاء لإنزالها ، إلا أنهم رفضوا معتذرين بأن الأمر خارج اختصاصهم ..
أ رأيت مثل هذه القسوة واللؤم ؟!
سأل بشار بهدوء إن كانت القطة تعود له .. أجاب الشاب مستغربا بأنها ليست قطته ، لقد سمع مواءها ، وهو مسؤول عن تقديم مساعدة لحيوان عاجز ، وهو يحمل هذه ( البطانية ) مع صديقته خوف سقوط القطة ..
اعتذر عن عدم تمكنه من المساعدة .. ابتسم الشاب ، وقال أنه يقدر ذلك ..
استمر بشار في مسيرته ..
لو لم يكن هذا الشاب مواطنا فرنسيا ، أ كان بمقدوره أن يوجه شتائمه الصريحة للجميع ؟
من المؤكد أن المواطن الفرنسي ليس أكثر إنسانية أو حيوانية من الآخرين ، لكنه في وطنه ، يستمتع بحرية لا يراها إلا الآخرون ، إلا من فقدوا أوطانهم ..
هل ينتهي الأمر عند هذا الحد ؟
أبدا ، ثمة استحقاقات كثيرة يدفعها من فقد وطنه ، قاعدتها الخوف من المستقبل ، والخوف من الجوع ، والاستهداف والمرض ..
خوف لا يجد أي عزاء في نفوس المتربصين ..
عليه أن يطيع ، وينفذ ، فلبطاقة الإقامة ثمن ، وللعمل ثمن ، ويخطئ من يظن إن ثمة

ثمنا موحدا .. إنه يختلف بين شخص وشخص ، وحالة و حالة .. يقدّر ذلك النخاسون في سوق السياسة الدولية ، وسوق العمل الاستخباري ، وسوق الأهداف أو المطامع غير المعلنة ..

سأل بشار نفسه :

أ يتحدث الآن عن نفسه أم عن الآخرين ؟

فكـر :

إنه يتحدث عن حالة تشمل الجميع برغم أنه يحسها ، ويصغي إلى صوت لؤمها بسبب تجربته ..

أكان ممكنا أن يعيش في دارته الفخمة دون ثمن دفعه على شكل جلسات واجتماعات طويلة عن كل ما يتعلق ببرامج بلده ؟

تبدأ الأسئلة من طريقة التفكير إلى الأساليب والأهداف والوسائل .. إنها تبدأ من الشعور الشخصي والحالة النفسية إلى حجم الإنجاز المتحقق ..

وعندما تكون الإجابة فاشلة عن عشرين سؤالا ، فإن رغبة السائل لا تفتر وهو يوجه السؤال الحادي والعشرين ..

بعدها تبدأ عملية التحقق من صدق الإجابات ، والصدق في الحالة هذه لا يعني أن تكون الإجابة صحيحة ، إنه يعني صدق المجيب لحظة الإجابة ، فقد تكون الإجابة خاطئة ولكن المجيب صادق ، وقد يحدث العكس ..

ما الحل ؟

ومن المسؤول ؟

من الخطأ استعجال إجابة .. إنها محنة إنسانية تعددت حلقات اللحاء حول جذع شجرتها الملعونة ، وهي تثبت حقيقة إخفاق التطور الإنساني في رسم أو إنتاج مستوى أخلاقي معقول يصون إنسانية الإنسان ، أما عملية البحث عن أبطال أو شهداء في هذه الطريق ، فإنها عملية مطعونة بالتصورات المسبقة عن الحالة لا غير ..

* * *

كم كلفت عملية البحث عن الرسامة الحسناء في الحانة ، من وقت وجهد وتخيلات وآمال ؟

كان بشار رجلا متوازنا ، ولم يعرف عنه ميول صبيانية أو حالات جموح عاطفي أو نفسي وبخاصة مع النساء .. بل كان يقطع الطريق أمام حالات إغواء أو ادعاءات عاطفية بواسطة إغراقه في التمسك بتهذيب عال لا مجال لكسر قشرته الرقيقة الصلدة ..

لكن الرسامة الحسناء باغتته في لحظة ضعف إنساني .. حالة الضعف هذه جعلت خالدا ينفجر بالبكاء ، أما هو فتمسك بصلابة زرعت نصلا في قلبه .. في هذه اللحظة

بالذات هوجم بشار بالسلاح الذي يعاني منه ، ويفتك به .. هوجم بالحزن ورسالته التي يمكن أن تصبح حالة تعارف أو محبة ..

جلس في الحانة نفسها كثيرا ، وسأل النادل أكثر ، وبحث عن الوجه الجميل الحزين في وجوه حسناوات باريس وليلها الساحر ، وعندما أوشك أن يشعر أن الأمر يشبه كذبة أو حلم ، وعندما أوشك أن يصحو من حالة هياج عاطفي ظهرت الحسناء ، وقضت على أي أمل بالخلاص..

بلا سابق موعد أو توقع سحبت الكرسي المواجه لكرسيه ، وجلست الرسامة وموجة عطرها تغمر الطاولة .. قالت :

ـ هل تتذكرني ؟

عصفت الأسئلة في رأس بشار ، وعلقت الكلمات في تدافعها .. سحب نفسا طويلا ، وقال :

ـ ومن يستطيع نسيان رسامة فاتنة ؟

ـ إنك تتذكرني إذا .. ما رأيك بالصورة ؟

ـ ما الذي دفعك لرسمي ؟

ـ أيها السيد المهذب .. الأسئلة لا تصلح إجابة عن أسئلة أخرى .. أليس كذلك ؟

ـ في بعض الحالات ..

ـ حسنا .. ما رأيك ؟

ـ كانت مليئة بالإحساس ..

ـ هذا جيد ..

فكر : إنها تتحدث من موقع ثقة يستغربه .. أزعجه الخاطر . قال :

ـ ما هو الجيد ؟

ـ أن يكون رأيك منسجما مع إحساسي بالصورة مع رغبتي في حينها برسم وجه حزين .. أنت عربي ، هل توقعي صحيح ؟

ـ نعم .. هل تعرفينني ؟

ـ لا .. عرفني الحزن عليك ..

ـ الحق أقول : إنني ترددت على هذه الحانة من أجل رؤيتك .. لقد أدهشتني الصورة ..

ـ كنت أتوقع ذلك ..

مرة أخرى ضايقه الإحساس بثقتها ، ولعلها أدركت ذلك عندما واصلت :

ـ عذرا أنا أدرس الفن في جامعة تقع في الضواحي .. لا أجيء إلى باريس دائما ، وأسمي إيزابيل ..

ـ اسمي بشار ، وقد سررت بالتعرف عليك .. ماذا تشربين ؟

طلبت إيزابيل عصير فواكه مخلوطا بالفودكا ..

تذكر بشار أن نساء الطبقة الأرستقراطية اللائي إلتقاهن في حفلات دبلوماسية ، كن يخترن شرب الفودكا مع الفواكه ، وعندما سأل أحد أصدقائه عن ملاحظته ، قال : إن النساء الأرستقراطيات يعددن أنفسهن لما بعد الحفلة ، ولا يرغبن أن تفوح رائحة الكحول من أفواههن .. لذلك فهن يخترن الفودكا لأنه لا يخلف رائحة ..

ابتسم لفكرة أن يسألها إن كانت على موعد مع أحد ، حين سألته :

ـ بماذا تفكر ؟

ـ لا أدري لِمَ قفزت إلى ذهني عبارة قالها صديق قديم مفادها أن النساء يعددن أنفسهن لشيءَ آخر عندما يشربن الفودكا بالعصير ..

ـ ألم يقل هذا الصديق ما الشيء الآخر ؟

ـ لا أظنك تجهلينه ..

ابتسمت بغنج ، وهي تقول :

ـ وماذا قال الصديق أيضا ؟

ـ تحدثت عن جملة ، وتريدين جعلها قصة طويلة ، هل راقتك الملاحظة ؟

ـ تروقني أنت عندما تتحدث ، وتحرج ..

حدق في وجهها ، كأنه يبحث عن شيء ما .. ثمة مفارقة تجعله حائرا في البحث في الملامح الحزينة والحديث الماكر ، فعندما تصمت ، يبوح وجهها بإيحاء حزين ، وعندما تتحدث يتلاشى الحزن ليحل محله جمال مثير يلونه صوتها المنغم .. لم يجد ما يقوله لها ، فصمت ..

عاد الوجه إلى حزنه ، وود حقيقة أن يطلب منها أن تحافظ على صمتها..

كانت تشرب بهدوء ..

وكان يدخن ..

رفعت عينين مليئتين بالعتاب ، وقالت متسائلة :

ـ هل يصح أن يستمر الرجل في التفكير ويهمل جليسته ؟

ـ قد يكون الجزء الأول صحيحا ، وهو فعل لا إرادي كما أقدر ، أما الجزء الثاني ، فهو تهمة لا يصح توجيهها ، فأنا مسرور بوجودك / ولا أريد أن أضع نفسي في محل ريبة أو شك إذا ما قلت إنني وخلال الفترة التي أعقبت رسمك لي ، كنت أبحث عنك في هذه الحانة ، وفي وجوه النساء .. لقد أجبرتني على تقديم اعتراف .. هل يرضيك ذلك ؟

ابتسمت بعذوبة ، وهي تقول :

ـ ستدعوني على العشاء ، أليس كذلك ؟

في مسيرته ، منذ أن غادر موقع الشجرة التي علقت القطة عليها ، كانت الصور والذكريات تترى دون أن يكون واعيا للعلاقات والتشابكات التي تستدعيها .. إنها تخرج وتؤدي وظيفتها في خلخلة تركيز يحتاجه ويتمنى أن يكون واثقا فيه ..

كان يمشي ببطء .. فقدت القدمان ثقلهما ، فقرر العودة إلى البيت عبر طريق أخرى ، ولكنه تذكر الشاب وصديقته والقطة ، فآثر العودة من ذات الطريق ليستكمل مشهدا رآه ..

غزته صور أخرى لذكريات ما أن يحضر المشهد الأول منها حتى تتداعى لتشكل سلسلة لا يستطيع كسر حلقاتها إلا بمؤثر خارجي ..

فبعد لقائهما انتظمت المواعيد ، وتطورت مساحة المعرفة ، وتعمق الإحساس ، وانفتح ليصبح حلما يحرك خريطة الحواس والغرائز ..

في منتصف ليلة مخمورة ، هتفت إيزابيل :

ـ سأرسمك ..

ـ من جديد ..

ـ لا .. سأجلسك أمامي كالمحترفين ، وأنجز لوحة ، ولأن العمل يتطلب الكثير من الوقت ، سنبدأ يوم الأحد ، وسأنتظرك في شقتي القريبة من الجامعة .. أرجوك قل أنك موافق ..

ضمها إلى صدره ، وقال :

ـ إنني موافق على كل ما يسعدك ..

في شقتها الصغيرة المكونة من غرفتين وصالة صغيرة ، لاحظ بشار أنها حولت إحدى الغرفتين مشغلا خاصا بها ..

كانت قد أعدت الشقة لاستقباله .. رائحة القهوة والخبز المحمص المختلطة بعطرها المميز أثار في نفسه الرغبة في استلقاء طويل ..

ارتدت إيزابيل بنطلونا قصيرا يكشف مساحة عريضة من فخذيها فضلا عن قميص يكشف منطقة البطن ..

بعد فطور سريع تخللته قبل مفاجئة ، نهضت إيزابيل ، وفتحت جهاز التسجيل لتنطلق موسيقى هادئة سرعان ما تتسابق نغماتها كسرب من طيور تتسلق جبلا ، تهدأ وكأن سرب الطيور قد حط على القمة ، لينظر من عليائه إلى ساحة ارتفاعه ..

دعته ليجلس على مقعد خشبي دوار .. نظرت إليه من الاتجاهات كافة ، واختارت زاوية رؤيـة كما يفعل المصورون .. قالت :

ـ لن أمنعك من الحركة ، ولن أصغي إليك إذا ما تحدثت ، فكر فيما تشاء ، أليست هذه رغبتك ؟

كطفل وديع اتخذ مكانه ..

في البدء راقب حركاتها ، ثمة الكثير من التحضيرات والأقلام والأصباغ والانتقالات غير المفهومة له .. توقف ليركز على جسد إيزابيل الفتي ..

للحظات شعر أنه يسترق نظرات ، وهو ليس مضطرا لفعل ذلك ، يمكنه أن يكون أكثر وضوحا وصراحة ، لكنه أقنع نفسه بأنه حر في إشغال الوقت بما يريحه ..

مع مضي الوقت ، واستغراقها في عملها ، شعر أن أسئلة من نوع جديد تلح عليه ..
ماذا يفعل في هذا المكان ؟
وتمنى أن يقول إنه بشار البصير لم يؤذ أو يقرر إيذاء أي مخلوق ، وكل همه أن يعيش مثل سائر خلق الله في هدوء وبعد عن الاستهداف ، وهو لا يبحث عن المشاكل ولا يحبها ، ولكن ما العمل حين تطارده ..
تمنى أن تكون حياته محض حلم أو ألا يكون له وجود في هذا العالم ..
فجأة .. جرت الدموع على خده ..
فجأة .. أخذ صدره يعلو ويهبط ..
وفجأة انفجر مرجل الكلام في صدره ..
تحدث عن أبيه وعائلته ..
تحدث عن عمله وتطلعاته ..
تحدث عن سوء الفهم ، والنفوس المريضة ..
تحدث عن الرغبات غير الشرعية والأحلام المريضة والأحقاد والقسوة ..
تحدث عن علاقاته وأصدقائه والأسباب التي جعلته معارضا ..
تحدث عن الثمن الذي عليه أن يدفعه ..
واصل بشار الكلام ..
واصل البكاء ..
ولم يعرف إن كانت إيزابيل تصغي إليه أو تصدقه لسبب بسيط إن لم يسأل ، ولم تحك هي عن شيء ..
كم دامت جلسته تلك ؟
كان ضوء النهار يهرب ببطء أمام تقدم الظلام .. حينها شعر أن أصابعه مغمورة في شعر إيزابيل التي تحتضنه وتقبل رقبته ..
- هل تشعر بالجوع ؟
- أريد أن أشرب كأسا وأغادر ..
أشعلت رغبته في المغادرة شعورا يشبه الذنب في نفس إيزابيل .. جلبت علبتين من البيرة المثلجة ، وكأسا واحدا ..
ملأته ، ثم ناولته لبشار ، ووضعت فتحة العلبة الثانية على فمها ، وبدأت تشرب .. كانا صامتين ..
ولعل الصمت لا غيره مسؤول عن أصابعها وهي تفتح أزرار قميصه ..
ولعل الصمت لا غيره أيقظ الغريزة ، فأصبحت لغة راهنا عليها معا للرد على عجز الكلام ..

وصل إلى موقع الشجرة .. لم يجد الشاب وصديقته .. نظر إلى الشجرة .. لم يجد

أثرا للقطة .. تمنى أن يكونا قد نجحا في إنزالها ..
حين وصل إلى البيت ، وجد صديقه خالدا جالسا في صالة الاستقبال يتحدث مع زوجته نسرين ، قال :
. ظننت أنك نسيت الموعد ..
. لا .. كنت أمشي .. أهلا بك .. هل تناولت شيئا ؟
قالت نسرين :
. أنظر إنه يشكك بضيافتي ..
قال خالد :
. وهل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ؟!
ارتمى بشار على أحد المقاعد قائلا :
. آه .. كم أنا متعب ..
قال خالد :
. هذا مدخل سيئ ، أهو اعتذار عن الوعد ؟
. لا .. إنني أصف حالتي ..
علقت نسرين ، وكأنها ترد على حالة التعب التي أشار إليها زوجها :
. أتمنى أن تتوصلا إلى قرار العودة ، وإن كان الأمر يشكل صعوبة كبيرة لكما ففكرا في زيارة ، وأشك أن كل هذه الأحداث لا تحرك شوقكما لرؤية الأهل والوطن ..
وغادرت كمن لا يتوقع إجابة ، وربما تكون قد استغلت وجود خالد من ناحيتين ، الأولى : جعلهما يفكران في الموضوع سوية . والثانية : عدم توقع رد فعل غاضب من بشار بسبب خالد ..
قال خالد كمن يقرأ أفكار صديقه :
. ما الخطأ في اقتراحها أو أمنيتها ؟
أجاب بشار ، وهو يدرك طريقة تفكير الزوجة والصديق :
. لم أقل إن ثمة خطأ ، ولكن هل الظروف مهيأة فعلا للقيام بهذه الخطوة ؟
قال خالد بتعاطف ، وهو يحاول التخفيف من وقع سؤاله الأول :
. أظن إننا نمنح الأخبار التي تصلنا مصداقية تفوق حقيقتها ..
. الأمر لا يتعلق بالأخبار ومصداقيتها ، إنه يتعلق بالموقف المطلوب منا اتخاذه ، فهل أنت مستعد لإعلان دعمك وموافقتك على ما يجري ؟ وهل تود حقيقة المشاركة وبالصيغة التي يحددها من يمسك بخيوط اللعبة أو المأساة ؟
. من حقنا التمتع بفرصة للإطلاع ، والزيارة توفر ذلك ..
ضحك بشار وقال بسخرية :
. اتفق الأميركيون مع صديقي وزوجتي !
قال خالد بعتاب :

ـ لا تنس أنني في مثل وضعك ..
ـ لنخرج فقد تطرد الجولة الهواء الفاسد الذي يخنقنا ..
بعد جولة بسيارة خالد ، وجدا نفسيهما في شارع الشانزلزيه ، فآثرا الجلوس في مقهى ( الفوكيه ) ..
ما إن دخلا حتى لاحظ بشار أن رجلا في الخمسينات من العمر جالسا على مائدة تواجه المدخل ، يحدق في صحيفة مفروشة أمامه ، أمسك بذراع خالد ، قائلا :
ـ أنا أعرف هذا الرجل ..
نظر خالد حيث أشار ، فقال :
ـ إنه يوسف الطويل .. ماذا يفعل هنا ؟
ـ ألم يكن يعمل في التصنيع العسكري ؟
ـ إنه مدير عام في وزارة الصناعة ، وأظنه هاربا من نوع جديد ..
رفع يوسف نظراته عن الصحيفة ، فشاهدهما ، فنهض محييا ، ومعانقا لصديقين قديمين فرق بينهم التعسف السياسي وليس الاختلاف أو التناقض ..
تبادلوا حديثا فيه الكثير من الحماسة لذكريات وحوادث وأوضاع ..
سأل خالد :
ـ هل أنت هارب ؟
ـ جئت وأنا أحمل تأشيرة زيارة بدعوة من قريب ، لذلك لا أعد هاربا من وجهة نظر الفرنسيين ، والحقيقة إني هارب من كل شيء ، وأتمنى أن أجد مكانا أحظى فيه بالأمن ..
سأل بشار :
ـ أ أنت مطلوب في قوائمهم ؟
ـ لا .. فبعد الحرب أو السقوط سلمت نفسي للأميركيين الذين احتلوا مبنى الوزارة ، وبعد تحقيق عام ، أخبروني بأنني حر ، وأنهم سيتصلون بي عند الحاجة ..
ـ إذاً .. ما الذي حدث ؟
ـ في الفترة التي أعقبت الحرب ، كان الجو هادئا ، ولم أتعرض لأية مضايقات ، بعدها بدأت عمليات تصفية سرية ، لم تعلن جهة مسؤوليتها عنها ، ففي الحي الذي أسكن فيه تعرض إثنا عشر مسؤولا سابقا لعمليات اغتيال ، ولم يحرك الأميركيون أو الشرطة ساكنا ..
قال خالد :
ـ ألم تسمع شيئا عن الذين يقفون وراء الاغتيالات ؟
ـ سمعت الكثير ، ويبدو أن لكل حركة أو اتجاه سواء كان شرعيا أو يعمل في الظلام برنامجا بعيدا عن إمكانية معرفة تفاصيله وأهدافه .. وأقول لكما أنني قضيت أياما طويلة ، وأنا أتوقع نهايتي في كل لحظة ، فعندما تمر سيارة بقربي أغمض عيني خوف

أن تنطلق رشقة رصاص تخترقني .. وإذا ما سمعت وقع خطوات ورائي أحسب أن الموت سيزرع رصاصة أسفل رأسي ، كنت أعيش كابوسا ..
قال خالد بتعاطف :
ـ إني أقدر وضعك ، وأحسه ..
ـ لا .. أنت لا تستطيع تقديره أو الإحساس به ، ومن الصعب عليك أو على غيرك أن يشعر بتشنج عموده الفقري وكأن مسا كهربائيا أصابه بفعل الخوف من رصاصة قد تأتي في أية لحظة .. عذرا ، فإن الخوف من الغد أو المجهول أقسى من عقوبة تعرف التفاصيل التي قادت إليها ..
قال بشار :
ـ إذاً ، فقد غادرت إلـى سوريا أو الأردن كما فعل كثيرون ..
ـ لم يكن أمامي خيار آخر ..
ـ ماذا تتوقع ؟
ـ ذلك يتبع برنامجهم ، فثمة قوة على السطح ، وثمة قوى تحته ، وبينهما من الاختلاف أكثر من الاتفاق ..
كان يوسف الطويل يتحدث عن دخول الأميركيين ، ويحلل الفرق بين سقوط النظام وسقوط الدولة ، ويرسم مشهدا فيه رائحـــة مؤامرة كبيرة ..
أما بشار فقد انتبه إلى الصحيفة المفروشة على المائدة .. لاحظ وجود صورة فوتوغرافية كبيرة احتلت أكثر من نصف الصفحة ، تمثل أسيرا عراقيا ، ألبسوه كيسا أسود أخفى رأسه ، وهو جالس ممدود الساقين في دائرة محاطة بالأسلاك الشائكة ، وقد احتضنت يده اليمنى جذع طفل صغير ذي أعوام أربعة ، واستقرت راحة يده اليسرى على جبين الطفل الملتصق بوالده ..
سحب الصحيفة ، وتأمل الصورة ..
لا يبدو على الرجل الذي أخفوا رأسه داخل الكيس أنه مقاتل ، ولا يوحي ثوبه ( دشداشته ) ولا النعال الجلدي أنه قادم من معركة ، أما وجود الطفل المرتعب ، فإنه شهادة تصفع أقسى القلوب ، وتصفع ذوي العيون الوقحة بأن كل ما يمت إلى المشاعر الإنسانية أو حقوق البشر أو رعاية الطفولة البريئة محض وهم ، ومحض وسيلة دعائية رافقت قساة البشر منذ أول عدوان نفذ على وجه الأرض وإلى هذا اليوم ..
صورة تعبر حقيقة عن الحرية التي تأتي على ظهر دبابة ، وتعزف لها الأسلحة نغمات الترحيب ..
تأثر بشار كثيرا ، حتى أن تأثره منعه من إمكانية سماع يوسف ، وهو يتحدث عن معاناته ..
بعد حين ، قال يوسف بحزن :
ـ كنت أتأمل الصورة قبل وصولكما ..

أدرك خالد تأثر صديقيه ، فحاول أن يفعل شيئا لإنقاذ الجلسة من الكآبة والحزن ، فاقترح أن يذهبوا إلى مطعم قريب ..

حاول يوسف الاعتذار ، لكن بشارا قطع عليه الطريق ، فغادروا المقهى..

بعد انتصاف الليل ، وبعد أن تقود الخطى نفسها لتغرق في الخمر والنسيان .. صاح بشار ، وهو يشير إلى صديقيه :

ـ خائن .. خائنان .. خونة ..

سأل خالد :

ـ ماذا تقصد ؟

قال بشار وكأنه يحدث نفسه :

ـ سقط عصر البطولة ، والرجولة ، والكلمة التي تستمد صدقها من رهافة سيف ، ليبدأ عصرنا عصر الخونة الباحثين عن الراحة الهاربين من المواجهة الممتنعين عن التضحية .. إنه عصر المتذمرين الباكين على أمجاد وهمية .. اجتمع الهاربون القدامى بالهاربين الجدد ليبكوا على وطن تخلوا عنه ..

صاح خالد بغضب :

ـ سكرت يا بشار ، فأطلقت خطابا تعيسا ..

قال بشار بهدوء :

ـ سكرت ، وسكرنا ، ولليل بقية ..مسك يوسف الطويل ذراع خالد وهو يقول :

ـ دعه ، إنه لا يقول سوى الحقيقة ، وليس فينا من يستطيع التفاخر بدوره ، وليس فينا من لا يبحث عن الأعذار والمسوغات .. دع بشارا مع لحظة صدق حتى وإن كانت مخمورة .. لقد سقط عصر البطولة حقا..

حين انطفأ الليل ، عاد كل منهم إلى بيته ، وهو يبحث في اتخاذ قرار لا يملك أي منهم الخيارات التي تقود إليه ..

* * *

# الفصل الرابـع

**اشترت انتصار الدارة التي تسكنها الآن من ثري ترك العراق قبل الحرب ، يقال أنه أحد حيتان أسواق الشورجة ، وينحدر من أصول إيرانية ، وقد تمت عملية البيع في مكتب محام يعمل وكيلا للثري ..**

**ولأن عملية البيع لم تسجل رسميا في دائرة العقارات بسبب توقف هذه الأنشطة بعد الحرب ، علق المحامي بأن انتصار شجاعة ومغامرة ، وإن كانت العملية مضمونة بسبب الصدق والثقة اللتين يتمتع بهما المالك الحقيقي للدارة ، وعندما سمعت انتصار ذلك ، قالت بهدوء :**

**ـ الحياة سلسلة مغامرات لا ينجح باجتيازها سوى الشجعان ، أما مسألة ضمان حقها**

في تملك الدارة بعد شرائها ، فلا أحد يمكنه أن يأكل حقا لانتصار ..
بعد تسلم الدارة عملت انتصار على ترميمها بالكامل وصبغها ، وكلفت مجموعة من الفلاحين بالعناية بحديقتها ، وزرع أصناف نادرة من الزهور وشتلات الزينة فيها ..
لم يمر وقت طويل حتى أصبحت الدارة بناءً جميلا لا يستطيع أن يمر أحد أمامه دون أن ينظر إليه ويتأمله ويثني على ذوق مالكه ..
في ذلك الوقت كانت عمارات بغداد ووزاراتها ودوائرها ومعالمها العمرانية تسرق وتحرق فلا تخلف سوى سخام أسود يزرع اللوعة والأسى في نفوس الناظرين ..
أثثت انتصار الدارة بأثاث يعود إلى صالات الوزراء وقصور الرئاسة بأسعار تشكل نسبة ضئيلة لا تكاد تذكــر من قيمتها الحقيقية ..
كان الأثاث بكامله مسروقا ومطروحا في أماكن خصصت لتجميع المسروقات .. تشرف عليها عصابات ازدهرت أعمالها ونشاطاتها بعد سقوط بغداد ..
اكتملت الدارة ، فنصبت انتصار قدورا عملاقة ، وطلبت من طباخين مشهورين أن يعدوا طعاما كافيا لإشباع ألف شخص ..
استقطبت عملية الطبخ البدائية التي جرت على الشارع المقابل للدارة أعدادا كبيرة من الفقراء والمحتاجين والمقطوعين والأطفال والعوائل ، واستنفدت أحمالا من جذوع الأشجار وأغصانها ..
نضج الطعام في القدور ، فطلبت انتصار إدخال الناس إلى الحديقة الواسعة ، وتوزيعهم على مجاميع حول موائد معدة لمثل هذه المناسبات ، وأكدت على حضورها الشخصي قبــل البدء بتناول الطعام ..
نفذت أوامرها ، فظهرت انتصار ..كانت ترتدي زيا هاشميا مسروقا من أحد القصور ..هلل الحاضرون للخاتون الصالحة التي ترعى الفقراء ، وتبذل أموالها لفعل الخير لإرضاء الله ..
استقبلت انتصار تهليلات الحاضرين بابتسامة عريضة .. غمرها الإحساس بالرضا على لقب الخاتون الذي منحه الجياع لها ، فوقفت أمام المائدة الأولى ، وأخذت ملعقة ، وهتفت بالحاضرين :
ـ قولوا : بسم الله الرحمن الرحيم ..
كرر الحاضرون البسملة ، وبدأ الأكل ..
انسحبت إلى الداخل ، ووقفت أمام نافذة تطل على الحديقة ، وأخذت ترقب ضيوفها ، وهي ممتلئة بالإحساس بالرضا والانتقام من الأيام الخوالي ..
بعد المأدبة العملاقة شاع خبر الخاتون الصالحة بين سكان الحي ، واستغلت هذا الاعتراف لتظهر كرمها وشكرها وكفاءتها أيضا في السيطرة على مجموعة من العاملين والخدم والسواق ، اختارتهم بعد طول تفكير من أقرباء بعيدين يسكنون ضواحي بغداد ، أعدتهم لأن تكون الطاعة مقياسا لا تحيد عنه في رضاها وكرمها ..

في يوم ما اقتربت الخادمة العجوز من غرفة نوم الخاتون ، كانت الخادمة تمسح البلاط عندما وجدت الباب مواربا ، وقد ظهرت جالسة أمام مرآة عملاقة تغطي مساحة الجدار ، وهي تمشط شعرها الطويل ..

دخلت العجوز الغرفة ، فلاحظتها الخاتون على المرآة ، فسألت إن كانت تحتاج إلى شيء ، رفعت الخادمة ذراعيها بالدعاء والشكر ، وأعقبت ذلك بالقول إن سيدتها امرأة جميلة وكريمة يتمناها باشوات بغداد ، وتساءلت عن عزوف امرأة بهذا الجمال والثراء عن التفكير بالزواج ..

ضحكت ، وسألت :

ـ تريدين تزويجي ، أليس كذلك ؟

ـ أتمنى ذلك ، لا ينقصك شيء غيره ..

ـ أعندك عريس مناسب ؟

ـ العريس المناسب ما تختاره الخاتون ، وهل يتجرأ أحد على مناقشة اختيارها ؟

ضحكت ، ومنحتها قطعة ذهب وجدتها مصادفة على مائدة زينتها ..

خرجت العجوز كما دخلت بالدعاء والشكر ..

أما انتصار فقد حرضها كلام العجوز على التفكير :

صورة مشوشة عن عائلة لا تتذكر ملامح وجوه أفرادها .. فقر أحالها إلى خادمة في بيوت قاسية لا تعرف غير الشتائم والضرب ، وهي محض طفلة صغيرة ..

شقيق يتنقل بين مهن حقيرة ، وسجون عديدة ، يمارس انتقامه من الحياة بضرب شقيقته والاستيلاء على نقودها القليلة لشراء الكحول ، والغياب في الخدر ..

لا تستطيع انتصار نسيان اليوم الذي جاء فيه شقيقها بصحبة شاب لا تعرفه ، تظهر ملامح الغنى عليه ..تصرف الشاب ، وكأنه صاحب البيت، فأخرج رزمة من النقود ورماها نحو أخيها ، وأمره أن يذهب لشراء المشروبات والطعام والمقبلات ، ويتركه في صحبة الجميلة أخته ..

لم يحتج الأخ أو يغضب ، فقد أعمته النقود ، فخرج ..

بدأ الشاب على الفور ممارسة رغباته في تقبيلها ، ولما مانعت ، أخرج الكثير من المال ، ووعدها أن يخرجها من حالة الفقر إلى حياة أخرى سعيدة ..

لم تكن في وضع يسمح لها باختيار ما ، فصمتت .. فسر الشاب صمتها موافقة صريحة ..

رفعها بين ذراعيه ، ورماها على سرير قديم في غرفتها ، واضطجع إلى جانبها ..

تدفق الشاب كلاما لم تفهم منه شيئا ، ثم أخذ ينزع عنها ملابسها ، وهي صامتة غير محتجة ،وما أن تعرت تماما حتى أخذ يقبل كل جزء في جسمها .. شعرت بإرتعاشات غريبة ، وتداخلت الصور والأحاسيس في ذهنها ..

بين رغبة في الضحك أو البكاء ..

بين شعور باللذة أو الحياء ..
بين اليقظة والحلم ..
شعرت انتصار بجسم الشاب الذي تعرى هو الآخر يلامس جسمها ، وشعرت بتوترات هذا الجسم ، ثم كما في حلم شهقت ، وكتمت رغبتها في صرخة ..
كان الشاب يطبق على شفتيها ، ويسحق صدرها ، ويخترقها ..
هدأ مرجل الرغبة ، وخيم الصمت ..
عندما عاد الأخ بما يحمله من حاجيات لاحظ اضطرابا على هيئة الشاب الذي فقد رغبته في توجيه أوامر ، ولاحظ غياب أخته ، وعندما سأل عنها ، قال الشاب إنها في الداخل ، ثم اعتذر بوجود عمل يقتضي خروجه ، ودون انتظار أو تأخير خرج الشاب ..
دخل الأخ الغرفة .. كانت انتصار مضطجعة على السرير .. سألها إن كانت تعاني من شيء ، أجابته بالنفي ..
وجد الأخ نقودا كثيرة مرمية ، فأدرك أن صديقه فعل فعلته ، فجمع النقود، وعندما تذكر ما يحمله من مشروبات وطعام ، شعر بشيء من السرور..
لا تستطيع انتصار نسيان ذلك اليوم ، فقد أصبح مفتاحا لما يليه من أيام اعتاد فيها أخوها على الوضع الجديد الذي يضمن له نقودا وأكلا وشرابا دون جهد ، ودون أن يخلف كل ذلك شعورا أو إحساسا بفقدان الكرامة ..
وبين إحساس قدري بفقدان الأمل أو الاعتياد على الوضع الجديد ، سارت الأيام لتزرع في نفسها شعورا بالقسوة ، والرغبة في الانتقام من الأخ والحياة والآخرين ..
سقط الأخ في شرك الإدمان ، وما أن وجد فرصة حتى اصطادته طلقة ، فمات ..
لم تشعر بالحزن ، كانت تعمل من أجل التغيير والانتقام ، والمفارقة إنها استفادت من مقتل أخيها في ترتيب وضعها الجديد ، إذ سكت عنها الآخرون ، فلا رغبة لأحد في ممارسة جنسية مع امرأة قتل أخوها قبل أيام ..
ولا أمل لأحد في اصطياد أموال مسروقة إثر حادثة قتل ، فالكل يعلم إن القتل كان ثمنا للمال المسروق ، ولا تعني الحقيقة شيئا أمام حقائق أخرى تعلم الآخرون استنتاجها لأنفسهم ..
إنها تدرك الآن قدرتها على اختيار أي شاب للزواج منه ، وتدرك إمكانية إقامة عرس خيالي في أي وقت ، لكنها لا ترغب في ذلك ، فقد استطاعت حياتها السابقة إطفاء رغبات الأنثى داخلها ..
كانت تبتسم ، وهي تحدث نفسها ، وتقول إنها أخذت استحقاقات عشر نساء من الجنس ..
وتسكت عن الطريقة ..
ها هي خادمتها العجوز تحرك أشياء تحاول نسيان المرارة التي رافقتها..

لا وقت للتخاذل ، ولا بد من الاستمرار بقوة وعناد ، فالفرص تبحث عن مستحقيها .. هكذا حدثت انتصار نفسها ..

عرفت الخاتون من جيرانها أن شخصية كبيرة اشترت أو سيطرت على دارتين مجاورتين لدارتها ، الأولى خصصت مقرا للحزب الذي ترأسه هذه الشخصية ، والثانية : للسكنى ..

احتلت الأسلاك الشائكة نصف الشارع ، ووضعت قوالب كونكريتية تحاذي سياج الدارتين ، وانتشر الحراس المسلحون ، وازدحمت السيارات التي تقصد مقر الحزب الجديد أو رئيسه ..

بمرور الأيام أدركت الخاتون بخل رئيس الحزب من خلال لجوء حراسه لطلب لقمة طعام أو شراب من خدمها .. أبلغت الخدم برعاية هؤلاء الحراس وكسبهم ، فكانوا يستقبلونها ويودعونها بالتحيات والابتسامات التي يبخلون بها على رئيس حزبهم ..

وهذا هو بالضبط ما كانت الخاتون تفكر فيه .. أن تكسب الحراس لإحاطتها بحماية ورعاية واهتمام تجعل من صورتها صورة مؤثرة ومهمة في نفوس الآخرين ..

بدأ الحراس ينقلون إليها أخبار أبي صهيب رئيس الحزب وأسراره ، ويتندرون على طريقة تصرفه بالأموال التي يأخذها من الأميركيين ، ويأخذها من المواطنين رشاوى لإنجاز طلباتهم ..

كانوا يصفونه بالجبن حتى إنه يرفض دوما استقدام عائلته التي تعيش في أوربا خوفا من استهدافهم ..

عصر أحد الأيام لاحظت الخاتون تجمعا في مقر الحزب ، وأصواتا تعلو للمطالبة بحقوق ، واستمعت إلى نتف من كلمات أبي صهيب وهو يحدثهم ..

شعرت أن التجمع غاضب ، وقد انفض بعد أن أطلق أفراده سلسلة من الشتائم على المسؤول الذي لجأوا إليه ..

بعد انتهاء التجمع ، جاء مسؤول الحراس إلى دارة الخاتون ، فطلبت رؤيته ، جاءها وهو يضحك مما حصل .. سألت :

ـ ما الأمر ؟

قال رئيس الحراس :

ـ إن التجمع كان يضم أفرادا من الجيش العراقي الذي حله الأميركيون .. طلبوا تدخل رئيس الحزب من أجـــل صرف مستحقاتهم ..

ـ وهل يستطيع أبو صهيب فعل ذلك ؟

ـ الأميركيون وحدهم من يقرر ، وقد وعدهم أبو صهيب بالحديث عن حقوقهم ..

ـ ما الذي يضحكك في الموضوع ؟

ـ تصرف رئيس الحزب .. فقد تقدم أحد الحاضرين ، ويبدو أنه نائب ضابط ، وأخبر رئيس الحزب بطريقة مؤثرة إنه شارك في حروب كثيرة ، وعاش حياة صعبة ، وعنده

عائلة كبيرة تنتظر منه إعالتها .. فقال له أبو صهيب : لماذا لم تعترض على الرئيس السابق ؟ قال الرجل : إنه عسكري وإذا ما فعل ذلك فإن رأسه سيقطع .. فما كان من أبي صهيب إلا أن قال بأن الرجل يستأهل مصيره لأنه لم يحتج على الرئيس السابق ، وكان الأولى به أن بفعل كما فعل هو شخصيا وذلك بالهرب من العراق والعمل مع الأميركيين لتحرير البلد .. سأل الرجل : إن كان تحرير البلد يعني حرمان عائلته من حقها في العيش .. غضب أبو صهيب وقال للرجل إن كان يستطيع مناقشة صدام حسين مثلما يناقشه الآن .. قال الرجل إنه يبحث عن حقه ولا يريد إزعاج أو مناقشة أحد .. غضب رئيس الحزب وأنهى الاجتماع .. هل هذا تصرف مسؤول ؟!

قالت الخاتون :

ـ إنني حزينة لسماع هذه القصة ، ولو أنني أعرف الرجل لساعدته..

قال رئيس الحراس :

ـ أنت أشرف من رئيس حزبنا ، ولا أقول ذلك وحدي ، فكل الحراس يعرفون كرمك و طيبتك ..

استدرجت الخاتون رئيس الحراس لمعرفة تفاصيل دقيقة عن أبي صهيب تتضمن معلومات عن موعد نومه ومغادرته للمقر وتحركاته وزواره واتصالاته وأمواله ..

سمعت معلومات كثيرة ، استمعت إليها بإصغاء شديد ، بعدها أمرت بتكريم رئيس الحراس ، فخرج مسرورا ..

لاحظت بعد أيام أن تردد الحراس على دارتها قل كثيرا ، فقررت الوقوف على حقيقة الأمر .. أمرت أحد الخدم باستدراج رئيس الحراس إلى دارتها ..

جاء حزينا كامدا ، وقال دون انتظار أسئلة :

ـ أطلق رئيس الحزب يد ابن أخته لؤي ليكون مسؤولا عنا باعتباره مسؤول أمن الحزب ، وأولى قراراته منعنا من دخول دارة الخاتون ..

ـ ولماذا فعل ذلك ؟

ـ إنه يقول أننا نهمل واجباتنا ، وقال لأبي صهيب أننا نعمل جميعا كخدم للخاتون ، فغضب أبو صهيب ، وأمره بمنعنا من دخول دارتك حماها الله ..

ـ هكذا إذا ..

ـ إنني أعتذر ..

ـ لا تعتذر عن قضية أنت لست مخطئا فيها ، إنني أتفهم الأمر وأشكرك ..

كرر رئيس الحراس إنحناءاته ، وإنسحب تاركا الخاتون تحدث نفسها :

هذا الصعلوك الذليل البخيل .. إنني أكرهه ، وقد بدأ باستفزازي ، فلينتظر ليرى فعل الخاتون انتصار ..

أرسلت خادما بطلب عباس الحربة ، وتذكرت أنه وعدها دون أن يأتي .. أبعدت التفكير بالأسباب المحتملة عن ذهنها ، وانسحبت إلى غرفة نومها، لتتابع مسلسلة تلفزيونية

..

بعدها استمعت إلى أغان متنوعة .. شعرت بالجوع ، فخرجت من غرفة نومها لتجد الخادم الذي أرسلته يتبادل حديثا ضاحكا مع أحد زملائه .. توقف الجميع لدى رؤيتها ، فقالت :

ـ أنت .. ألم أرسلك في مهمة ؟

ـ نعم خاتون ، وقد فعلت ..

ـ لماذا لم تخبرني أنك عدت ؟

ـ قالوا إنك في غرفة النوم ..

ـ حسنا ، هل رأيته ؟

ـ نعم ..

ـ ماذا قال ؟

تقدم الخادم نحوها ، فعرفت أنه لا يريد أن يسمعه أحد ، فانسحبت . قال بصوت خفيض :

ـ طلب مني أن أسألك سؤالا واحدا قبل زيارتك ، وهو هل تعملين الآن مع الأميركيين ؟

فكرت انتصار قليلا : إنهم يحسبون أنني أعمل مع الأميركيين ، وهذا يسوغ ابتعادهم عني .. قالت للخادم :

ـ اذهب الآن ، وقل لعباس ، يا ابن الزنى هل تتصور أن انتصارا رئيسة حزب كأبي صهيب ؟

انطلق الخادم ، لينفذ رغبة الخاتون ..

* * *

كان دخول عباس الحرية لدارة الخاتون صاخبا .. لم يبق خادم أو سائق أو فلاح إلا وتعرض لتعليق ساخر ، ودون أن يعرفه أحد باستثناء الخادم الذي أرسل بطلبه ، عامله الآخرون باحترام يليق بسيد محترم مقرب من الخاتون ..

ربما تكون طريقته أو صخبه أو تحرشاته مسؤولة عن إعطاء مثل هذا الانطباع ..

فرك عباس عينيه لدى رؤية الخاتون في صالون دارتها ، وقال :

ـ ابن الزنى نعرفه ، ولكن من هو أبو صهيب ؟

ـ إنه ابن زنى آخر ، استدعيتك لأجله ..

هجمت انتصار عليه ، وأخذت تقبله بشوق ، فاحتضنها ، وحاول رفعها ، وهو يدمدم :

ـ أصبحت ثقيلة ..

ـ قل بأن قوتك قد خارت يا ابن الحربة ..

جلسا في ركن الصالون ، وطلبت من أحد الخـــدم رعاية طلبات عباس ..

ـ إذاً ، فأنت لست أميركية ..

ـ ولماذا تظن ذلك ؟

ـ أخبرونا أن أسلاكا شائكة تحيط بدارتك ، وعندما نسمع سيرة الأسلاك الشائكة أو الأكياس السود التي يضعونها في الرأس نتذكر الأميركيين فورا ، فليس غيرهم من سن هذه السنة العرجاء ..

ـ الأسلاك تعود إلى أبي صهيب ، وهو مسؤول حزب جاء معهم .. ما شأني بذلك؟

ـ في السجن مظلومون ..

ـ وهل جئتني بالبراءة ، أم أن شتائمي جعلتك تصحو ؟

ـ الاثنان معا ، فالشتيمة ذكرتني بطبعك ، والبراءة وجدتها وأنا داخل ..

ـ وكيف حالكم جميعا ؟

ـ إننا بخير .. حدثت مشاحنة بسيطة بيني وبين جاسم الريس كادت أن تتطور إلى ما يشبه نية بالقتل ، لكن رجال المقاومة حلوا الأمر على طريقتهم ..

ضحكت انتصار ، وقالت :

ـ هل أنتم على علاقة بهم ؟

ـ لا .. ليست لنا أية علاقة بهم ، لكنني تحديت جاسما في أمر نفذه رجال المقاومة في الوقت نفسه ..

ـ لا تكف عن حماقاتك واستهتارك أبدا ..

ـ نحن تربيتك يا خاتون ، أليس هذا لقبك الآن ؟

ـ هل تحتج عليه ؟

ـ بالعكس ، إنه يليق بك تماما على ألا يكون مانعا في قضاء الليلة بين أحضانك ..

ـ يا ابن الزنى ، أهذا هو كل ما تفكر فيه ؟

ـ أبدا .. أنا طوع أمرك ..

ـ هل تناولت عشاءك ؟

ـ نعم ، ولكن ذلك لا يمنع من عشاء مع الخاتون يسبقه شيء من الشراب ..

ـ طلبك بسيط وجاهز دائما ..

ـ هذا ما أعهده فيك ..

ـ حسنا .. لنتمش قليلا في الحديقة ريثما يعدون مائدة تليق بابن الحريـة ..

في حديقة الدارة كانت انتصار تحدث عباس عن أبي صهيب .. ثرواته وبخله وتصرفه الشائن مع الآخرين .. حدثته طويلا عن معلومات استقتها من حراسه عن عاداته وتوقيتات حركته ..

توقف عباس عن المشي ليقول :
ـ ما شأننا بكل ذلك .. تستطيع إطلاقة واحدة أن تصفي الأمر ..
ـ لا تكن أحمق .. أنا لا أريد قتله .. كل ما أريده أن يسرق ماله ، ثم يقيد وهو في غرفته التي يظنها عصية ، والهدف هو إلحاق الإهانة به ، هل فهمت ؟
ـ عملية هادئة دون إطلاق نار ، وإحداث ضجة ..
ـ بالضبط ، وقد أعددت خطة ..
ـ أنت ؟
ـ نعم أنا ، لماذا تستهين بقدراتي ؟
ـ عفوا .. ومن يستطيع الاستهانة بقدرات الخاتون صاحبة دارة المنصور ؟
ـ أريد أن يشاركك أفراد العصابة الأربعة : جاسم وأسمر وعزيز وجبار ..
ـ الأمر لا يستحق كل هذا .. أستطيع تنفيذ العملية برفقة إثنين من صبياني ..
ـ أريدها عملية محترفين لا تقبل أخطاء الصبية ..
ـ أظن أنهم سيعتبرونها عملية صغيرة تنال من هيبتهم ، فجاسم لوحده أرسلناه لتدمير دبابة ..
ـ قل لهم أنهم مدعوون عندي ، وسأقنعهم ..
ـ هل أخبرهم بما سمعته ؟
ـ نعم .. افعل ذلك ، وسيبقى الإقناع حصتي ، وسأنتظركم على العشاء الأربعاء القادم .. هل اتفقنا ؟
ـ إننا متفقون دائما ..
ـ أدخل إذن لتأخذ كأسا ، وتتناول عشاءك ..
ـ برفقتك يا خاتون ..
ـ أعرف ذلك يا ابن الزنى ..

*　　　*　　　*

حاولت انتصار جعل دعوتها لأصدقائها القدامى مناسبة لإظهار كرمها وتعاطفها ، وأسلوبا في الانتقام من جوع الأيام الخوالي ..
أجلست كلا منهم على كرسي فاخر ، وأمامهم مائدة عامرة بكل ما حرموا منه وتمنوه ..
على صدر المائدة جلست انتصار ، وإلى يمينها جلس عباس الحربة وجبار الأسود وجاسم الريس ، وإلى يسارها جلس عزيز الأرمني وأسمر ياقو ..
قالت انتصار :
ـ قد تتعجبون ، وقد تتهمونني بالكذب أو الحاجة إذا ما قلت لكم بأنني أشعر إنكم

عائلتي الحقيقية ، فأنتم تعرفون كما أعرف أن لا عائلة لدي ، أما شقيقي فإن موته خلف راحة لي ، فإذا ما احتفيت بكم ، وسررت بوجودكم ، فذلك من حقي لأنني لا أعرف غيركم أو لا أثق بالآخرين ، وما حاجتي إليكم سوى ثقة مني بقدراتكم ووفائكم .. إنني أرغب في شرب كأسي هذا نخب صداقتنا الدائمة وارتباطنا ..

رفع الرجال كؤوسهم ، وشربوها دفعة واحدة ..

فعل كلام انتصار فعله في إحداث تأثير من نوع خاص بهم ..

قال عباس الحرية :

ـ لم نتعود الغدر ، ونحن أهلك ، ومعك دائما ..

قال أسمر ياقو :

ـ أشعر بسعادة وأنا أسمع كلامك .. أنا أحييك ..

قال جبار الأسود :

ـ أنا ضاحك بطبعي ، وأعترف بأنني مستعد للبكاء إذا ما أسعدك ذلك..

قال عزيز الأرمني :

ـ إنك تستحقين لقب الخاتون .. كنا نسخر ونحن نسمع اللقب ، ولكنني مستعد لسحق رأس من يسخر منك ..

قال جاسم الريس :

ـ تحداني عباس من أجلك ، وفي داخلي كنت حاقدا عليك ، والآن ، وبعد إحتفائك بنا ، والتقدير الذي لاقيناه في قصرك أقول : كان عباس محقا ، ولك أن تعتمدي علي ..

انتبهت انتصار إلى أن الدموع تسيل من عينيها وهي تستمع إلى كلمات من أشخاص ما عرفوا يوما سوى القتل والسرقة والاغتصاب والاعتداء.. تمالكت نفسها ، وهتفت :

ـ أولاد الكلب .. دعونا نحتفل ..

احتفل أولاد الكلب ، وساد هرج ، وتكسرت أطباق ، وهم يتقاذفون بها ..

نهضت انتصار ، ووضعت قرصا في جهاز مركون إلى الجانب ، فانطلقت موسيقى راقصة ، فأخذت تتلوى على وقع نغماتها ..

رقصت انتصار ، وتوقفت أمام كل واحد منهم تعبر له عن حبها وامتنانها له رقصا وخطف قبلات ..

عصف الخمر في الرؤوس ، فانطلقت الحناجر بغناء جرحته الأيام والأحقاد .. جرحه الفقر ، وجرحته الجريمة ..

رقصت انتصار كما لم ترقص من قبل رقصة حملت كل ما في نفسها من قوة للتغيير ولعيش حياة تنتقم فيها من الماضي ..

كانت تتثنى وتتلوى ..ترتفع وتنخفض .. تنتظم حركتها مع الموسيقى .. مع الغناء .. مع صفقات أصدقائها الجالسين في صالـــون دارتها ..

عندما انتهت الرقصة هجم الرجال عليها ، وأحاطوها بالعناق والقبلات وقرص الأفخاذ ..

خرجت من الصالة ، وتركت الرجال يعبون كؤوس الخمر ..

تبادلوا أحاديث عن رغبتهم في جعل دعوتهم لهذه الليلة تقليدا شهريا يصفي قلوبهم ، ويمنحهم المتعة والتسلية ..

عادت انتصار .. لاحظ الرجال أنها ارتدت ثوبا جديدا ، فاستقبلوها بالتصفيق ..

قال أسمر ياقو :

ـ اتفقنا في غيابك أن نجعل سهرتنا هذه تقليدا شهريا .. ما رأيك ؟

قالت :

ـ أنتم عائلتي ومن حقكم أن تجعلـــوا السهرة تقليدا يوميا إن أردتم ..

صفق لها الحاضرون ، فقالت :

ـ أيها الرجال .. نتناول عشاءنا في الحديقة ، فليحمل كل منكم كأسه ويتبعني ..

تبعها الرجال إلى الحديقة الفسيحة .. كانت الخراف المشوية ، والأسماك المسقوفة ، والنيران المشتعلة في جنبات الحديقة تضفي على السهرة الكثير من المتعة والشهية ..

هتف جبار الأسود :

ـ هذه دعوة لا يقيمها سوى الملوك ..

وضعت الخراف والأسماك وأطباق عديدة ومتنوعة من أكلات لم يسمعوا بأسمائها على مائدة عملاقة ، وتقدموا للعشاء ..

قال أسمر ياقو :

ـ سأعطي مليون دينار لمن حضر دعوة أكثر كرما وظرفا من دعوة الليلة ..

نظر الرجال بعضهم إلى بعض ، وقالوا أنهم لم يحضروا دعوة أفضل ..

هتفت انتصار :

ـ تستطيعون أن تردوها ..

قال عزيز الأرمني :

ـ كيف ؟ في الخرائب التي نختفي فيها ..

ـ لا .. بأن تحافظوا على صداقتكم وصداقتي معكم ..

تعالت أصواتهم تحية لها ، وبدأوا الأكل ..

بعد العشاء عاد الرجال إلى الصالة ، فوجدوها نظيفة لامعة تنتشر فيها روائح طيبة ..

نظروا إلى بعضهم بعضا ، وتساءلوا عن المجازر التي أحدثوها، وانطلقوا ضاحكين ..

جاءهم خادم ، وسألهم إن كانوا يرغبون في الشاي أو القهوة أو الكونياك..

اختلفوا بينهم ، فصاح جبار الأسود :

ـ هاتها جميعا ..

تناولوا كؤوسا من الكونياك وشربوا القهوة ..
دخلت انتصار ، فقال عباس الحرية :
ـ حدثت الرجال عن المشعوذ جارك ، وهم جاهزون .. متى تريدين أن يتم الأمر ؟
سألت انتصار :
ـ هل عرضت المعلومات عليهم ؟
ـ نعم ..
ـ لم تبق سوى الخطة ..
فتحت باب خزنة في الجدار ، وأخرجت ورقة فيها ما يشبه خريطة الدارة، وبدأت تحدثهم عن الغرفة التي ينام فيها أبو صهيب ، وأين يكمن الحراس ، ثم قالت : إن أفضل طريق إليها هي اجتياز السياج الخلفي لدارتها ثم النزول إلى الحديقة الخلفية لدارة أبي صهيب ، وحدثتهم عن رغبتها في أن يتم الأمر بهدوء ..
سأل جبار عن محتويات الغرفة ، فقالت إنها تضم خزنة كبيرة وسريرا مزدوجا وكرسيين ..
عاد ، فسأل عن حجم الأموال في الخزنة .. قالت : إنها تحوي الكثير ، وهي ليست متأكدة من الرقم .. عقب جبار قائلا :
ـ سنحصيها ، ونقتسمها ..
قالت : إنها لهم وهي غير معنية بالأموال .. حصتها في تقييد الرجل وتكميم فمه ..
قال أنه سيحضر لاصقا لا يفتح إلا بعد انتزاع شعر شاربه ولحيته من الجذور ..
ضحكوا جميعا .. بعدها سأل عزيز الأرمني :
ـ ما الوقت المناسب ؟
ـ الساعة الثانية ليلا ..
ـ متى ؟
ـ في اليوم الذي ترغبون فيه ..
ـ خير البر عاجله .. ليكن الغد موعدنا .. هل اتفقنا ؟
أعلن الرجال موافقتهم ..
عقب عزيز :
ـ لم يبق سوى أن نشكر الخاتون ونغادر ..
قالت انتصار :
ـ لدي غرف نوم كثيرة ، تستطيعون البقاء إن أردتم ..
كرروا الشكر ورغبوا في المغادرة ، فخرجوا مودعين بالقبلات ..

* * *

حدثت ضجة كبيرة .. ازدحمت السيارات ، وارتطمت سيارة من نوع ( لاند كروز ) بسيارتين واقفتين أمام دارة انتصار ، وسمعت أصوات سيارة إسعاف ، وانتشر المسلحون في الشارع ..
كانت الخاتون تتابع المشهد من نافذة غرفتها ، وهي ترتعش سرورا للعملية التي نفذها الرجال الخمسة بعد منتصف ليلة أمس ، وبانت تأثيراتها التي تشاهدها صباح اليوم ..
نقل أبو صهيب إلى المستشفى ، وجن جنون لؤي ابن أخت رئيس الحزب ومسؤول الأمن ، وانهالت الشتائم والتهديدات على الحراس ، وتجمع رجال الشرطة للتحقيق في الحادث ، وانتشرت الإشاعات ..

قال الخدم :
ـ يتحدثون عن عملية للمقاومة استهدفت رئيس الحزب وهو جريح..
ـ يقولون أن مجموعة من الجيش المنحل هجمت على المقر ، واعتدوا على أبي صهيب ..
ـ ثمة عملية داخلية حصلت في صفوف حزبه ..
جاءت سيارات أميركية ، وتوقفت مدرعتان في مدخل الشارع ونهايته ، وانتشر الجنود لتطويق المنطقة ..
دخل ضابط أميركي يرافقه مترجم عراقي ومجموعة جنود إلى دارة الخاتون ، وطلبوا لقاءها ..
أدخلهم الخدم إلى الصالون ، وثمة كانت الخاتون في انتظارهم ..
قال الضابط عبر مترجمه :
ـ ثمة عملية اعتداء استهدفت رئيس الحزب ، وهو جار لك .. هل من معلومات ؟
قالت بهدوء :
ـ هل من المعقول توجيه السؤال إلى امرأة وحيدة تعيش في دارتها مع خدمها ؟
ـ ألم تسمعي أو تشاهدي شيئا ؟
ـ لا ..
ـ وماذا عن خدمك ؟
ـ لو لاحظوا شيئا لأخبروني به ..
ـ أريد رؤيتهم ، فمن المحتمل أن يكون لأحدهم علاقة ..

قالت الخاتون بغضب :

ـ هل المطلوب منا أن نحمي رئيس حزب لا يستطيع حماية نفسه ؟ يمكنكم أيها السيد البحث عن المنفذين في صفوف من ظلمهم هذا الرجل وليس في بيتي ..

ـ إننا نقوم بواجبنا ..

ـ أليس من المعيب أن يستقوي هذا الرجل بكم ، وهو يطرح نفسه مدافعا عن حقوق الناس ؟

نظر الضابط إلى المحيطين به ، وقال متذمرا :

ـ لنذهب .. لا فائدة ..

عندما خرج الضابط ، كان الخدم مجتمعين في الحديقة .. نظر إليهم ، فقالت الخاتون :

ـ أيها السيد .. إنني أشبع من يعمل معي فلا ينظر يمينا أو شمالا .. ابحثوا عن الجاني في غير هذا المكان ..

انحنى الضابط لها ، وغادر دون أن يتحدث مع الخدم ..

بعد قليل كان رئيس الحراس في دارة أبي صهيب يتحدث معها عن مجموعة من الأشخاص اقتحموا غرفة نوم رئيس الحزب .. قيدوه ثم كمموه ، وأسمعوه إهانات وشتائم لم يسمع بها من قبل ، وأفرغوا محتويات خزانته بعدما أخذوا المفاتيح منه ، وهم يحاولون أن يلقوا بالمسؤولية عليه وعلى بقية الحراس ..

أخبرته بأنه يستطيع الاعتماد على مساعدتها ، فانصرف شاكرا ..

بعد العملية التي استهدفت أبا صهيب ، أصبح مقر حزبه هادئا وخف النشاط فيه .. صرف الحراس من الخدمة ، ولم يأت بديل عنهم ، وانتشرت إشاعة تقول أن الأميركيين غاضبون عليه ، وقالت غيرها إنه التحق بعائلته في أوربا ..

أما الخاتون فقد شاع صيتها بالخير ومساعدة الناس وحل مشاكلهم ، فلجأ إليها الكثيرون يبحثون عنـــدها عن حل لأزمات يعانون منها ..

كانت تشعر بالسرور وهي تساعد الآخرين ، وتكلف عصابتها باسترجاع أموال مسروقة أو الانتقام من أشخاص اعتدوا على من يقصدها ..

وفي كل شهر تقيم وليمة عظيمة لعصابتها تستمر بين رقص وغناء وشرب وأكل حتى الفجر ..

كرمها جعلها رئيسة حقيقية لعصابة الخمسة الذين أدركوا أن وجودها يشكل حالة وئام بينهم ..

كانت تغضب إذا ما شعرت أن ثمة جفوة بين الرجال ، وكانت لا تقبل إطلاقا سماع حديث أو إشارة سلبية عن أحدهم بحضوره أو غيابه ، وهذا هو بالضبط ما عزز الثقة بها والولاء لها ..

*		*		*

# الفصل الخامس

**الكل باطل وقبض ريح**
**متى يدق بابي الموت فأستريح**

**كلمات لشاعر علقت بذهن بشار ، فأخذ يرددها ، وكأنه يواسي نفسه... يواسي عجزه في التآلف مع الواقع الذي يعيشه ، وعجزه عن اتخاذ قرار يحسم تردده وقلقه ..**
**ذاكرة متحركة ..**
**ذاكرة تفتح جراح الماضي ، وتبحث في إخفاقاته الكثيرة ونجاحاته التي تومض كعيني قطة في الظلام ..**
**إنه يحتمي بذاكرته أو يعذب نفسه بها هربا من ظروف لا يشعر بالانتماء إلى تفاصيلها ..**
**فكر:**
**أيرضى أن تكون ذاكرته مساحات مؤجرة لأحداث وشخصيات تسلبه حقه في ملكيتها ؟**
**ذلك يتبع طريقة التفكير ، والحالة النفسية التي تحيل الذهب ترابا ، والتراب ذهبا ..**
**هل كانت إيزابيل قطعة ذهبية أو حفنة تراب ؟**
**من الخطأ أن يعذب الإنسان نفسه في إعادة تقويم لما تختزنه الذاكرة ، ذلك إنه ينتمي إلى تفاصيلها ودقائقها تلك التي تومض بالسعادة أو تلك المعفرة بتراب الحزن ..**
**الذاكرة - فكر بشار - تاريخ شخصي يشبه إلى حد بعيد تاريخ الدول والشعوب ، فلا يستطيع شعب حي أن ينكر أحداثا مأساوية / يعترض على أسبابها ونتائجها / حصلت في تاريخه.. إنها ملكه بسلبياتها وإيجابياتها، والموقف المتزن لا يجعل من الاعتراض أو عدم الموافقة إنكارا للحادث ذاته ..**
**يود بشار حقيقة أن يصل إلى درجة إنكار تلغي الحادث أو الحوادث من ذاكرته ، ولأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء ، فلا أمل بالإمساك بالرياح، ولا أمل في انتظار الموت لتحقيق الراحة ..**
**قد يستطيع التفكير أن يضيء جوانب غفل عنها ، وقد يستطيع الوقوف على جوهر أية حالة ، لكنه لا يستطيع أبدا الوصول إلى قرارات سليمة دون مسوغات أخرى يسندها الواقع بمعطياته ..**
**الذاكرة ذاكرتان ؛ إحداهما جامدة ميتة .. والثانية متحركة متفاعلة ، فإلى أيهما ينتمي بشار ؟**
**هكذا سأل نفسه ، وتركها تغوص مع وميض عيون قطط الذاكرة ..**
**تكررت لقاءاته مع إيزابيل في شقتها الصغيرة ، والهدف في كل مرة استكمال لوحة منعته مرارا من مشاهدتها لحين الوصول إلى هويتها وبصمتها الفنيتين ..**

كانت تغرق في تأملاتها وألوانها وتحديقها في وجه بشار حتى شعر أنه ارتكب خطأ كبيرا بالموافقة على رسمه ، لم يكن يدرك أن العمل طويل وممل ويحتاج إلى صبر وجهد ..

فسر ذلك بضعف قدرتها الفنية ، وفسره ثانية بأنها تحاول استبقاءه في شقتها ، وفشل في تحديد أو معرفة إن كانت تحبه أم لا ، وفشل ثانية في امتحان عواطفه نحوها ..

إنه يحتاجها ، ذلك مؤكد ، وهو يرتاح إلى صحبتها ، وتعجبه كثيرا طريقتها المتحررة في التصرف والحركة وممارسة الجنس وتناول الطعام ..

في يوم ما جاء بشار إلى شقتها على غير موعد ، وما أن وصل إلى بوابة عمارتها فوجئ برؤية الأميركيين اللذين اتصلا به وكانا سببا في إعلان معارضته لنظام الحكم في بلده ..

توقفا لدى رؤيته وتقدما للسلام عليه والاستفسار عن وضعه ، وقال أحدهما ببساطة أدهشته أنهما كانا في زيارة لإيزابيل ، وتساءل الآخر عن معرفته بها ..

أكد بشار المعرفة ، فقطع الأول الحديث ، وأعلن سعادته بفرصة اللقاء ، وانسحبا تاركين بشارا في وضع لا يحسد عليه ..

انفجرت الأسئلة في رأسه ، وفكر بالرجوع والتخلي عن الزيارة ، لكنه عبر خطوات مترددة وصل إلى باب الشقة وطرقه بأصابع مرتعشة ..

فتحت إيزابيل الباب وأطلقت صرخة سرور ، وظهر جليا أن وجوده المفاجئ أسعدها.. من يدري ؟

ربما يكون الأمر محض تمثيل .. هكذا فكر وهو يرتمي على أحد المقاعد ..

من المؤكد أن رجلي المخابرات يعرفانها ، فمتى بدأت المعرفة ؟ وهل لها علاقة به ؟ وما نوع الأحاديث التي دارت عنه ؟

أدركت إيزابيل إنه في وضع غير مستقر ، فجلست إلى جانبه ، وهمست في أذنه :

- أنا لحبيبي ، وأشواقه إلي ..

وواصلت :

- إني نائمة وقلبي مستيقظ ..

كان يستمع ، وواصلت :

- شماله تحت عنقي ، ويمينه تعانقني ..

أدرك بشار إنها تردد مقاطع من نشيد الإنشاد في العهد العتيق ، فتساءل مع نفسه : ما معنى هذا كله ؟

- سيبقى حبيبي على صمته
وأنا أقدم قلبي تفاحة
تقضمها لآلئ أسنانه

فكر ، إن المقطع الأخير لا ينتمي إلى نشيد الإنشاد ، فأي صمت هذا ، والأسنان

تقضم التفاحة ..
انتظر لسماع المزيد ، لكنها توقفت ، ورفعت رأسها من على صدره ، وقالت :
ـ سأسمع حبيبي الذي يرعى بين السوسن ..
ها هي تعود إلى العهد العتيق ، وتساءل إن كانت تمهد لخيانة أم تضحية !
قرر بينه وبين نفسه ألا يسألها عن الرجلين ليعرف إن كانت ستشير إلى زيارتهما أم لا .. عندها شعر براحة وبرغبة في مراقبة ملامح وجهها ، فسأل :
ـ هل تودين استكمال العمل في اللوحة ؟
ضحكت ، وقالت :
ـ كنت أظنني أضطهدك في جلسات مملة ، وأشعر بالذنب لذلك ، وها أنت تطالب بإكمالها ، يا للمفارقة !!
ـ يمر الإنسان بحالات مختلفة ..
ـ برغم أنني لم أقرر العمل اليوم ، لكنني سعيدة بعرضك ، فلنواصل .
انسحبا إلى غرفة المشغل ، وثمة جلس بشار ، وتمتع بفرصة مراقبة دقيقة لملامحها وهي تتحرك وترسم وترشقه بنظرات ثاقبة ..
وجه جميل .. ملامح دقيقة منسجمة .. يحيل الصمت الوجه إلى ماسة للحزن والتأمل ..
ماذا تخفي هذه الإيزابيل ؟ ولماذا لم تشر إلى الزيارة التي أقلقته وتقلقه ..
أخذ يتابع عينيها ، ويحاول حساب عدد المرات التي ترمش فيها الجفون في الدقيقة الواحدة ؛ معتمدا على ساعة جدارية تواجهه ..
لم يكن حساب الدقائق منسجما مع حساب عدد الرمشات ، فهذه حالة تتداخل فيها العوامل الإرادية باللاإرادية منها .. أما مسألة الانتهاء إلى استنتاج حول ذلك فإنه ليس أكثر من مضيعة للوقت ..
بعد فترة لم تكن طويلة ، سألت :
ـ ألاحظ أن ملامحك متغيرة عما اعتدت ملاحظته ..
قال محاولا امتحان ملاحظتها التي يعرف أنها صادقة :
ـ كيف تفسرين ذلك ؟
ـ حالة التفكير أعرف قياساتها وتأثيراتها على ملامحك ، ثمة شيء جديد ، هل تشعر بالحاجة إلى فعل شيء ؟
داهمه السؤال ، فأجاب :
ـ أود أن أحملك إلى أقرب سرير ..
ـ لا أشعر أن ذلك ما تود فعله ، فليس ثمة أنثى تفشل في مثل هذه المعرفة ..
شعر بمحاصرة الإجابة له ، فصمت ..
قالت :

ـ هذا ما توقعته ..
قال غاضبا :
ـ ماذا توقعت ؟
ـ أن تصمت عندما تخفق في إقناعي بإجابتك ..
نهض بشار شاعرا بضيق شديد .. تلفت محاولا إيجاد جملة يقولها قبل أن يخرج .. رمت إيزابيل لوحة الألوان ، وهجمت عليه معانقة ، ثم اقتادته إلى صالة الشقة ، وهي تقول :
ـ أنظر يا بشار ، واستمع إلي جيدا .. أعرف أنك صادق ، وأنك تشبه طفلا كبيرا لا يستطيع أن يخفي انفعالاته ، فمنذ اللحظة الأولى التي فتحت لك فيها الباب ؛ أدركت أنك تتحرق شوقا لسؤالي عن الرجلين اللذين كانا في زيارة لي .. أنت لم تفعل ، وكنتَ تنتظر أن أبدأ أنا بالحديث .. أعرف ذلك ، فلماذا كل هذه الشرقية يا أيها الشرقي الجميل ؟ ما الخطأ في توجيه سؤال مباشر ؟ كم استنفدت من خلايا في التفكير والغضب والاتهام ؟ سأعد القهوة ، وأمنحك فرصة للتفكير ، هذا ما تحتاجه ..
ذهبت إلى المطبخ تاركة بشار الذي شعر أنه عار تماما أمام تلقائيتها ..
عاد ليوبخ نفسه ، فقفز السؤال مجددا ؛ عليّ أن أجد إجابةً عن سبب الزيارة وعلاقتي بالموضوع .. إنها لم تتحدث ، وهذا هو بالضبط ما يقلقني ، وأنتظر أن أطفئ ناره بإجابة تحترم مخاوفي ..
ثم عاد وفكر ، أنه جعل نفسه صغيرا وانفعاليا في اللحظة التي قرر فيها ألا يسألها ، وأن يمتحن علاقته بها عبر الصمت . امتحان الصمت لم يكن مقنعا أو مقبولا .. إنه في الأقل لا يستطيع الدفاع عنه ، في الوقت الذي كانت كل أحاسيسه وملامحه تفضحان انشغالاته ..
جاءت إيزابيل تحمل كوبين من القهوة .. لاحظ أنها قد سرحت شعرها ، وأن عينيها تومضان كعيني قطة ..
ـ سأسمع حبيبي الذي يرعى بين السوسن ..
فهم بشار إنها لم تقتبس مقاطع العهد العتيق دون فكرة أو قصد يسبق الاقتباس ، ولام نفسه على فشله في إدراك فكرتها ..
قالت :
ـ اشرب قهوتك ..
رشفَ جرعة .. ابتسم ، وقال :
ـ ثمة أمران أريد معرفتهما ؛ الأول : منذ متى تعرفت عليهما ؟ والثاني : هل للمعرفة علاقة بي ؟
ـ الأمر الأول : إنك تريد معرفة إن كنت مرسلة من قبل جون ورونالد لإقامة علاقة بك .. ويرغم ما يتضمنه السؤال من جرح لكرامتي كإنسانة أقول : لا .. معرفتك سبقت

معرفتهما .. الأمر الثاني : إنك تريد التأكد من إنني لست سوى وسيلة للوصول إليك ، وأقول جوابا على التساؤل بأن الأمر صحيح ، وصحته في تقديري ليست موجهة ضدك ، بل هي معك ولصالحك ..

ـ كيف ؟

ـ أعرف حساسية الموضوع ، لكنهما شرحا لي أنك تمر في ظروف صعبة ، وأنهما لا يبغيان سوى حمايتك من استهداف مؤكد يرتدي وجوها عدة من قبل نظام الحكم في بلدك ، ولأنك حساس جدا في التعامل معهما ؛ لجأ إليّ ، ولم أجد في تعاملي معهما ما يثير ريبة في نفسي ، فوافقت .. هذا كل ما هناك ..

ـ مقابل ماذا ؟

تغير وجهها ، فقالت بهدوء محاولة إخفاء ارتعاش صوتها :

ـ إنك تهينني ..

ـ هل تحسبينهما ملاكين حارسين ؟

ـ لم أقل ذلك ..

ـ ألم تفكري في الهدف من هذا كله ؟

ـ أعرف أن لهما أهدافا ، ولا يضيرني ذلك .. المهم هو الهدف الذي أراه أنا ..

ـ لماذا لم يكتفيا بالإجابات التي قدمتها لهما شخصيا ؟

ـ أظنك تعرف أنهما يحاولان تدقيق كل كـــلام وامتحانه قبل تصديقه ..

ـ وهل وجدا في كلامي ما هو مناقض للواقع ؟

ـ لا .. وهذا ما يدهشهما ..

ـ كيف ؟

ـ كانا يقولان : لا يعقل أن يكون أي رجل سياسي بهذه البراءة والشفافية ..

ـ والآن ؟

ـ إنهما متأكدان من صدق كلامك ..

ـ والفضل لك ، أليس كذلك ؟

ـ لا تتهمني أرجوك ..

ـ إذا كانا متأكدين من صدقي فلماذا لا يكفان عن ملاحقتي ؟

ـ إنهما يفكران في دور منتظر لك ..

ـ لم أطلب أي دور ..

ـ أعرف .. إنهما يمثلان مؤسسة وسياسة وليسا أفرادا ينتهي حماسهما في أية لحظة ..

ـ مؤسسة وسياسة تبحث عن مصالحها ..

ـ هذا مؤكد .. ماذا تنتظر ؟

ـ هل طلبا منك عدم إخباري باتصالاتهما ؟

ـ قالا : إن ذلك أفضل ، وتركا تقدير الأمر لي ..
ـ ألم يفكرا في تشويه العلاقة بيني وبينك ؟
ـ لا أعرف ، ولكنني أفكر الآن ..
ـ ماذا تجدين ؟
ـ أظن أنك مصمم على الخسارة ..
ـ خسارتك ؟
ـ ربما ، وأتمنى ألا يحدث ذلك ، وإن قررت ؛ فأخبرني على الفور لأنني لا أريد أن أقتل ببطء عن طريق الإهمال ..
ـ سأغادر ..
ـ نعم ، وأرجو أن تفكر بهدوء بعيدا عن الانفعالات ..

غادر بشار شقة إيزابيل ، وهو يشعر أنه مثخن بالجراح ، وأشد ما يؤلمه ويفتك في دواخله أن يتعرض إلى مفاجآت لم يعد نفسه لاستقبالها ..

فبرغم كل ما يوحي بتماسكه وثقته بنفسه ، فإنه يشعر بحالة من الخلل والارتعاش تقود إلى رغبة في الصمت والانفراد ..

هل يستطيع أن يعد ديباجة اتهام محدد يواجه بها إيزابيل ، ويسقط عنها قدرتها على الدفاع والإقناع ؟

فكر في كثير من الاتهامات ، وحين تفحصها الواحد تلو الآخر ؛ وجد نفسه غير عادل ، ذلك أنه اسبب في الحالة التي هو فيها .. إن من ارتضى إقامة علاقة مع الأميركيين بمسوغات لا يريد الآن مناقشة شرعيتها ، فلماذا يمنع عن إيزابيل / وهي بعيدة كل البعد عن ما يحيط به من مشاكل ومعاناة / حقها في رؤية قد لا تتطابق مع رؤيته لكنها في الاتجاه نفسه ؟ لِمَ يحلل لنفسه ما يحرمه على الآخرين ؛ بل يجده مناسبة لاتهامهم ؟

وإذا ما افترض أنها تكذب ، فهل يملك دليلا ؟ وهل شعر بأي انعكاس سلبي ولدته علاقتها عليه ؟

أسئلة ، ودوار

أهذا ما تخلفه الحياة ؟

شعر أنه يرى الأشياء من خلال معاناته ، وأحس على نحو مفاجئ بأنه مسؤول عن تعاسة محتملة تحيط بالأشخاص الذين يتعامل معهم ..

أما من نهاية ؟

يتذكر بشار أن أياما ثقيلة سودا مرت ، وهو يشعر بعجز كامل عن فعل شيء يخرجه من حالة اللاوزن هذه .. فكر : إنه يقع تماما في ما خشيت إيزابيل أن يحدث .. هل كانت تقرأ دواخله أفضل مما يستطيع أن يفعل ؟

وهل يفسر ذلك لمصلحتها أم ضدها ؟

عصر يوم مشمس قادته قدماه إلى الحانة التي تعرف فيها عليها .. طلب قهوة , وأخذ يرتشف السائل الأسود بهدوء وحزن .. تقدم منه النادل العجوز ، وقال :
- ثمة رسالة تنتظرك منذ أيام ..
ناوله رسالة دون ظرف .. قرأ :

فتحت لحبيبـي
لكن حبيبي انصرف
ومضـــى
إن نفسي قد خطفت
التمسته فما وجدته
ودعوته فلم يجبني

إيزابيـل

مرة أخرى تستعين بمقاطع من نشيد الإنشاد ، وتخفي وجهها وراء الكلمات .. إنه يدرك إن أية قراءة يقدمها أو يستنتجها الآن ؛ تفشل في حل أهداف الوجه المختفي ، وهو لا يجد مناصا من حل اللغز بالرؤية ..
توجه إلى شقتها .. طرق الباب ، ثم كرر الطرق دون جدوى .. حينها تذكرأنها أعطته نسخة من مفتاحها .. بحث عنه ، فوجده في جيب صغير .. فتح الباب ، وتوجه إلى غرفة النوم ، كانت خالية .. عاد فدخل المشغل .. فوجئ بعدم وجود اللوحة .. بحث عنها بين اللوحات وفي الشقة ، لكنه لم يعثر عليها .. دخل المطبخ ، وأعد لنفسه كوب شاي ، وجلس في الصالة ..
عندما أنهى كوبه فكر بكتابة رسالة قصيرة ، ومغادرة المكان ؛ حين سمع صوت مفتاح يتحرك في قفل الباب ..
ظهرت إيزابيل
صرخت .. سقطت الأكياس التي تحملها .. ارتمت على صـــــدر بشار ..
- ظننت أني لن أراك .. يا لقسوتك ..
احتضنها ووضع شماله تحت عنقها ،وعانقها بيمينه ، وهمس في أذنها :
- قامتك مثل النخلة ، وثدياك مثل العناقيد ..
لا يدري على وجه التحديد لماذا خاطبها باقتباس من نشيد الإنشاد .. أراد أن يرد عليها ويسعدها ، هذا ما جال في خاطره حينها ..
بين دموع وقبل وعناق وجدا نفسيهما يمارسان طقسا خالدا يرد على القسوة وسوء

الفهم والتعاسة ..
تسلل الليل بهدوء ليفرش غلالة من ذرات سود وفضية على الجسدين الملتحمين .. لم يشأ أي منهما أن يجرح صفاء اللحظة بكلمة ، لذلك غاب السؤال عن مصير اللوحة في ذهن بشار ..
إنه الآن يتذكر جيدا أن اللوحة قفزت إلى ذهنه في اللحظة التي دخل بيته، وشاهد ابنته أمل تنتظره لأخذ موافقته على سفرة مدرسية تقوم بها .. شعر بسعادة حين طبعت أمل قبلة شكر على خده ، والتقطت ورقة الموافقة ، ومضت مسرعة نحو غرفتها ، وتركته يطعم لحظة السعادة لندم نسيان السؤال عن اللوحة ..
بعدها بيومين ، سأل عنها ..
قالت إيزابيل مبتهجة :
ـ إنها مفاجأة المعرض المشترك الذي يقـــام في الجامعة بعد أسبوع ..
ـ ألا يمكن أن أراها ؟
ـ نعم .. عند افتتاح المعرض وليس قبله ..
في اليوم الموعود اصطحب صديقه خالدا إلى الجامعة لرؤية المعرض المشترك أو على الأصح مساهمة إيزابيل فيه وتحديدا لوحته هو ..
كان متحمسا ، فانتقل حماسه إلى خالد الذي قال أنه لم يدخل أي معرض منذ سنوات .. عقب بشار بأنها فرصة لكسر الصيام عن رؤية المعارض، فقال خالد إنه صائم عن أشياء كثيرة ، فهل له أن يساعد في إفطار عام.. ضحك بشار وقال : ذلك يتوقف على نوعية الصيام ومستلزمات الإفطار ..
ضحكا كثيرا ..
وصلا إلى الجامعة ، وتتبعا لوحات الدلالة التي تقود إلى المعرض ، وثمة بحث عن إيزابيل ، لكنه لم يجدها ، فقرر متابعة اللوحات مع صديقه ، والانتظار عند اللوحة التي تحمل وجهه ..
استعرض الصديقان لوحات المعرض جميعها .. لم يجـــدا أثرا للوحتها ..
تعجب بشار كثيرا ، وبدأ ثانية في البحث عن إيزابيل ..
كان أسمها موجودا في البطاقة التي تحمل أسماء الفنانين ، وأسماء لوحاتهم .. لكنها غير موجودة ..
توجه إلى شخص توقع أنه يقوم بمهمة إدارية في المعرض ، وسأله عنها ، فأخبره بأنها للأسف لن تشارك ، ولما سأله عن السبب ، قال الرجل :
ـ تعرضت لوحتها للسرقة ، فثارت وانفعلت كثيرا .. اصطحبها رئيس الجامعة لتهدئتها ، والتحقيق في ظروف اختفاء اللوحة .. أنا آسف ..
صدمته الإجابة ، وكان وجود خالد عونا في القـــدرة على تمالك النفس ..
سأل :

- كيف تفسر الأمر ؟

قال خالد :

- لو لم تكن اللوحة جيدة لما سرقت ..
- إنها تحمل وجهي وملامحي ..
- إنها لوحة ، والأصل في الحالة هذه غير مـهم أو غير مقصود ..
- كم كنت أتمنى لو أنني ألقيت نظرة عليها ..
- لا تحول الأمر إلى مأساة ، إنها لوحة جيدة وكفى ..
- وماذا عن إيزابيل ؟
- إنها حقا تستحق العزاء ..
- لنذهب إلى مكتب رئيس الجامعة ..
- أفضل أن تراها في الشقة أو أي مكان آخر ، لا تثقل إحساسها بوجودك ..

كان بشار ممسكا ببطاقة المعرض .. فتحها وتأمل الأسماء ثانية ، ثم قال بأسف :

- أتدري ما أسم اللوحة ؟
- لا تقل إنها تحمل اسمك ..
- لا .. اسمها سؤال يقول : هل الحزن محبة ؟

في شقتها ، كانت إيزابيل فتاة محطمة .. امتلأت عيناها بالدموع .. لم يجد عناق بشار ومواساة خالد في التخفيف من ألمها على فقدان اللوحة أو سرقتها ..

إنها الوحيدة التي سرقت ، وهي الوحيدة التي تعنيني بحق .. لقد منعتك يا بشار حتى من فرصة إلقاء نظرة عليها لإعتبار واحد هو ألا يشاركني أحد في متعة امتلاك عمل خلقته ، ومنحته عصارة تجربتي وعاطفتي ورؤيتي .. كانت لوحة هائلة .. لا أقول هذا لأنني رسمتها .. لا ، أبدا إنني أعني القيمة الفنية لها .. أنتما لا تدركان دهشة القائمين على المعرض لدى رؤيتها وإعجابهم بها .. كان إعجابهم معفرا بغيرة لم يستطيعوا إخفاءها .. كانت عملا ينهض بي .. والآن ما عساي أن أفعل .. هل أبحث عنها ؟ أؤكد أنني سأفعل ذلك في كل الظروف والأحوال .. هل أتمسك بالأصل ؟ وهو يشبه حفنة رمل تتسرب بين أصابعي .. إنني خائفة جدا ..

فقدت اللوحة ، وأخشى فقدان الأصل .. هل ثمة تعاسة أشد مرارة مما أنا فيه ؟

بعد أكثر من ساعة خرج الصديقان ، وكانا في وضع يتحاشى أحدهما النظر إلى صاحبه كي لا يتذكر ألم إيزابيل وحزنها ..

كأس من أجل إيزابيل
كأس من أجل اللوحة المسروقة
كأس للأحزان
كأس للمتعة المفقودة
وكأس للمستقبل المجهول

خمس كؤوس .. رجلان حزينان يتابعان أخبار الوطـــن في دارة بشار ..
في هذه الليلة بالذات ولد قرار العودة إلى الوطن ، وإن كانت هذه العودة تحمل عنوان زيارة ..
قال خالد :
ـ من يستطيع أن يتصور تعقيدات النفس الإنسانية .. لم يكن يخطر لي إطلاقا أن تفضي أحداث اليوم إلى القيام بالزيارة الصعبة ، أما وقد نضجت بطريقة جنونية في رأسك ، فإني أوافقك وسأرافقك أيضا ..
تقدم خالد إلى باب الصالة المفضي إلى داخل الدارة ، وصاح :
ـ يا نسرين أين أنت ؟
وكأنما كانت نسرين تنتظر هذا النداء ، ظهرت وهي تتوقع سماع خبر مهم .. قال خالد :
ـ جاء القرار أخيرا ، سنعود إلى الوطن ..
عانقت نسرين خالدا ، وانتقلت إلى بشار متسائلة .. قال :
ـ هو ذاك .. أليست هذه رغبتك ؟
ـ متى نعود ؟
ـ كم يلزمك من وقت ؟
ـ أيام .. أيام فقط ..
ـ إذن ، سيكون السفر بعد أسبوع ..
ـ لقد أنستنا الغربة كيف نطلق الزغاريد ..
ـ أعدي لنا عشاءً ..
ـ فورا يا عزيزي ، وشكرا لك يا خالد على البشارة ..

* * *

كل يوم يزور بشار إيزابيل .. يلتقيها .. يحاول كسر حزنها على اللوحة المسروقة ..
وكل يوم يتأكد أن حزنها أصيل .. عميق .. لا يقبل العزاء ..
حين قال لها أنه سيعود إلى الوطن في زيارة .. قالت بهدوء أن لديها ما يشغلها وهو البحث عن اللوحة . سألها عن إمكانية المساعدة . قالت أن جون ورونالد يبحثان عن اللوحة أيضا ..

أحس بشار أنها تبتعد على وفق وتيرة قدرية لا يملك إزاءها فعل شيء ..

التقى بالأميركيين ، وحدثهما عن اللوحة المسروقة ، فأخبروه بأنهما يبذلان ما بوسعهما لإعادتها ، وحين علما برغبته بالعودة لم يخفيا شعورهما بالراحة ، وعمدا إلى ضرب موعد قريب للقاء ..

تساءل مع إيزابيل ، أين يمكنهما إيجاد اللوحة ؟

تحدثا عن عصابات لسرقة اللوحات ، وتحدثا عن محلات خاصة لبيعها ، وأشار إلى إمكانية قيام شخص غير محترف بالأمر على سبيل الإيقاع أو الغيرة .. قالت بأنها لا تكره أحدا ، وغابت في صمت عميق ..

سأل إن كانت تعد سفرته نوعا من التخلي عنها ؟ لم تجب ، فقال إنه تحدث مع الأميركيين عن اللوحة .. فتحت عينيها .. كانت تنتظر المزيد ، لكنه لم يكن يملك ما يخفيه ..

في الموعد المقرر زوده الأميركيان بأرقام هواتف ، وطلبا منه الاتصال في بغداد بشخص يدعى ديك كاستنر لأنه يملك تعليمات خاصة بشأن مساعدته وتسهيل عودته وتذليل الصعوبات التي قد تعترضه ..

كان بشار يستمع دون ردود أفعال .. سؤال واحد كان يشغله في حينها ، وهو هل توصلا إلى معلومات أو إشارات عن مصير اللوحة ؟

أكدا أن الوصول إلى اللوحة لن يستغرق زمنا طويلا ، وعليه أن يطمئن على حالة إيزابيل ..

غادرا إلى عتمة عملهما ، وغادر إلى عتمة نفسه !!

كيف يودع إيزابيل ؟

بالوعود أم الدموع أو الأمنيات .؟.

رآها تبتسم ..تشجع وأخبرها أن الطريق إلى اللوحة ليست طويلة .. كان يكرر كلاما سمعه دون أن يكون مؤمنا بحرف مما يقوله ..

تملكته الدهشة حين أكدت أنها تعرف .. وعندما حاول الوقوف على تفاصيل أكثر كانت تهز رأسها ، وتؤكد أنه إحساس لا غير ..

قال : إنه سيعود ..

قالت : حاول الاتصال إن استطعت ..

قال : هذا مؤكد ..

قالت : أرجو ذلك ..

قرأ في إجابتها شكوكا شبه صريحة .. أدركت قراءته ، فقالت :

ـ كنت أعرف أن الطريق إليك صعبة ..

ـ لا أفهم ما تقصدين ..

ـ ستعرفه في الوقت المناسب ..

ـ متى ؟ سأرحل غدا ..
ـ حسنا . هل ستقسم أمامي أنك ستنفذ الوعد الذي سأمليه عليك الآن ؟
ـ سأقسم في حالة واحدة هي قدرتي على تنفيذه ..
ـ إنك قادر ..
ـ إذن أقسم على وعد لا أعرفه ..
ـ ثمة رسالة كتبتها إليك .. عدني بألا تفتحها لحين وصولك إلى بلدك..
ـ أعدك ..

ابتسمت وعانقت بشارا مودعة ..
فغادر حاملا وعدا ورسالة ..

* * *

عادوا إلى الوطن ..

عاد بشار ونسرين وأمل ، يرافقهم خالد الذي فضل ترك عائلته في باريس ، ومنح نفسه فرصة لتقويم الوضع ..

عندما عبرت السيارة الحدود ؛ قالت أمل لأبيها :

ـ هل نقبل تراب الوطن يا بابا ؟

فكر بشار أنها متأثرة بمشاهد رأتها عن المهاجرين والمنفيين والأسرى الذين يعودون إلى أوطانهم .. قال :

ـ ليس ضروريا أن نفعل ذلك ..

آلمه الإهمال والفوضى والأوساخ .. آلمه غياب السلطة .. علق السائق:

ـ بمقدور أي إنسان أن يدخل العراق ، ويمضي إلى الداخل دون المرور على الجوازات ، ودون أن يسأله أحد عن كيفية الدخول ..

وقف أمام نافذة يقبع وراءها موظف .. دفع جوازات السفر ، فدمغها الموظف دون أن ينظر في وجه بشار أو يتساءل عن أصحاب الجوازات الأخرى ..

خرج وهو غير مصدق الفرق الهائل بين الأمس واليوم .. كان كل شبر في المكان يوحي بالخوف والدقة والصرامة حتى يكاد المرء ينظر في جواز سفره للتأكد من اسمه ..

لم تكن تقاليد الأمس مطلوبة أو مستساغة ، لكن ذلك لا يعني الموافقة على ما شاهده الآن ..

في الطريق الطويل إلى بغداد ، تحدث السائق عن الحوادث التي تحصل بطريقة شبه يومية .. قتل وسلب وتدمير ، حتى بات السفر ليلا مغامرة لا يقدم عليها عاقل ..

شعر بشار أن حديث السائق أرعب نسرين وأمل ..
تساءلت نسرين :
ـ وهل تحصل الاعتداءات نهارا ؟
أجاب السائق :
ـ يمكن أن تحدث في أي وقت ..
وأردف :
ـ قبل أيام اشترت امرأة عراقية سيارة من السوق الحرة في الأردن.. تعطلت السيارة على الحدود ، فعادت المرأة إلى بغداد ، وأرسلت شابا من معارفها لجلب السيارة .. حاول الشاب تشغيلها دون جدوى ، فربطها خلف سيارة أخرى لسحبها إلى بغداد .. في الطريق هوجمت السيارتان من لدن سيارة ثالثة .. ضغط السائق الأول على دواسة البنزين ، فانقطع الحبل الذي يربطها بالسيارة المسحوبة ، وانطلق هاربا .. أما السيارة العاطلة فقد توقفت وبداخلها الشاب .. تقدم رجلان من السيارة وأنزلا الشاب تحت تهديد السلاح .. فتشاه بحثا عن نقود ، ولما لم يجدا غير مبلغ زهيد ؛ ضرباه .. ثم فتشا السيارة ، فوجدا بين أوراقها ورقة نقدية من فئة مائة دولار ، فعادا يضربان الشاب الذي أنكر معرفته بوجود الورقة ، فطلبا منه الركض دون توقف وإذا ما فكر أن يلتفت فإنهما سيطلقان الرصاص عليه .. ركض مبتعدا ، فقاما بربط السيارة العاطلة إلى سيارتهما ، ومضيا ..
قالت أمل :
ـ وماذا فعل الشاب يا عم ؟
ـ بعد دقائق من الحادث ، قدم رتل عسكري أميركي .. حاول الشاب إيقافه لتبليغهم بما حدث . لم تتوقف أية سيارة أميركية بل أنهم وجهوا فوهات رشاشاتهم باتجاهه ، وصرخوا بوجهه أن يبتعد ..
ـ يا للقسوة ..
ـ لجأ الشاب إلى بيت أعرابي .. أطعمه ، وأعطاه مبلغا زهيدا للعودة إلى بغداد ..
قالت نسرين :
ـ ألم يبلغ السلطات هناك ؟
ضحك السائق وهو يقول :
ـ في بيت الشاب ذبحوا خروفا على سلامته . لا أحد يفكر كما تفكرون ..
كان بشار يصغي للحديث صامتا .. لم يفاجئه الحادث ، لكنه لم يستطع إبعاد موجة حزن وتأثر لما آل إليه الوضع بعد الحرب ، ووجد نفسه يتابع الطريق وكأنه ينتظر سيارة مهاجمة ..
وصلوا بغداد ..
توقفت السيارة في ساحة اللقاء في الشارع المقابل للسفارة الأردنية المدمرة بفعل انفجار

استهدفها ..
كان الأهل والأصدقاء مجتمعين هناك للترحيب بـمقدم بشار وعائلته ..
أنسته القبل والأشواق قلق الطريق ..
إنه الآن في بغداد .. حان وقت الاحتفال ..
في وقت متأخر من الليل ؛ استطاع بشار أن ينسحب بصعوبة من أهله وأصدقائه إلى غرفة أعدت له ، وثمة أخرج رسالة إيزابيل ، وأخذ يقرأ :

عزيزي بشار ..
أعرف أنك أكثر غربة من مطر في صيف بلادك
ومعرفتي لا تقدم العزاء ، إنها تمنـح الألم ..
أشتاقك ، وأكاد أبكي مثل طفلة صغيرة على
فراقك ..
هل تذكر ؟
سألتني يوما ؛ إن كان الأميركيان جون
ورونالد قد فكرا بتشويه العلاقة بيني وبينك ،
يومها قلت : لا أعرف ، لأنني حقا لم أكن أفكر
في ذلك ..
ولا أدري لمَ حاصرني السؤال ؟ فعلى الرغم
من أنك قَصدت معنى مخالفا لما ذهبت إليه
إذ كنت تفكر أن مجرد ظهورهما في علاقة
كالتي بيننا تشويه لها ، فإنني بحثت فيما هو
أعمق في الهدف من هذا كله ..
أوصلني التفكير والتمعن في أحاديثهما إلى أنهما يريدان
دفعك إلى العودة لأنهما يعتقدان أن وجودك هناك ضروري ويخدم برامجهم ..
إنهما رجلان مهذبان ، ولكن التهذيب لا يعني شيئا مع الإصرار على الولاء لبرنامج مرسوم .. فهما ليسا أكثر من رجلين آليين تحركهما قوة كبيرة مسيطرة ..
هل تذكر اليوم الذي قابلتهما فيه وهما يغادران شقتي ؟
عرفا عرضا أنني أرسم لوحة لك ، فبرز اهتمام غريب عبر عن نفسه بسلسلة من الأسئلة قادت إلى إجابات عن قيمة اللوحة وتعلقي بها ورغبتي في عرضها ضمن المعرض المشترك للجامعة ..

يومها سألني أحدهما عن رأيك بها .. أجبت بأنك لم تحض بفرصة لرؤيتها ، وستكون المفاجأة عند افتتاح المعرض ..

وبرغم أن الهدف الرئيس للزيارة كان الوقوف على حقيقة رغبتك في العودة إلى بلدك من عدمها ، ودفعي إلى تشجيعك للعودة ، فإن معرفتهما بوجود اللوحة والمعرض حرف الحديث باتجاه اللوحة نفسها ..

قلت لهما بأنني لا أتدخل في خصوصياتك ، بل يهمني أن تبقى قريبا مني.. غادرا شقتي ، لكنني لا أستطيع إطلاقا نسيان نظرة خاصة تبادلاها قبل المغادرة ..

إن فكرتي تقوم على أن اللوحة قد سرقها جون ورونالد لأسباب أعتقد أنها تدور حول تدمير منجز إبداعي أثمرته علاقتنا ، وتدمير المنجز تدمير للعلاقة ذاتها من خلال دفعي إلى زاوية أجتر فيها ألمي ، ودفعك للشعور بالعجز ..

أظن أنهما نجحا في ذلك .. نجحا في دفعك إلى قرار العودة .. ونجحا في إعلان براءتهما من أية قيمة خلقية أو إنسانية ..

أما اللوحة ، فإنها لا تعني لهما شيئا ، وستعود لأنها حققت الغرض ، وأنا بانتظار وصولها في أية لحظة تعقب قراءتك لرسالتي .. عندها سأشكرهما ، وأغلق بابي نهائيا في وجهيهما الكريهين ..

أرجو ألا تسبب هذه الكلمات ألما أو حزنا جديدين .. لقد شعرت أن من حقك أن تعرف ما سكتت عنه يوم طلبت منك أن تقسم على وعد لا تعرفه ..

أشتاقك

وأقبلك

اتصل بي ..

إيزابيل

مع انتهاء الرسالة شعر بشار أن شيئا يقف في حنجرته ..شرب قدحا من الماء ، وتلاه بآخر دون أن يتحرك هذا الشيء .. نزع ملابسه ، وارتمى على السرير ليغط في نوم يشبه حالة إغماء ..

*        *        *

# الفصل السادس

أصاب ( انتصار ) نوع نادر من حمى الرغبة في إذلال الآخرين .. كانت تنتقم على طريقتها الخاصة من كل سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة في حياتها السابقة التي عاشتها في الذل والفقر والحرمان والعهر ..

نومها : أحلام وكوابيس وحالات اختناق ..

صحوها : موعد مع الحمى التي تنشط كل خلية من خلاياها للعمل والتفكير وقراءة الذل في الوجوه التي تقصدها ..

تذلهم بالمساعدة ..

تذلهم بقضاء حوائجهم ..

تذلهم بالانتقام لهم ..

تذلهم بالانتقام منهم عن طريق عصابتها ..

وفي كل حالاتها كانت تكبر يوما بعد يوم ، وينتشر صيتها ، وتعلو سمعتها في زمن كان الجميع فيه يحتاجون إلى مصداقية صعبة المنال لإثبات تمسكهم بأخلاقياتهم وعدم انجرافهم في دوامة انهيار القيم ..

عصابتها تعمل ليل نهار .. تزداد غنى وقسوة وخبرة في البحث عن مكامن الأموال المسروقة وسلبها .. يقودها التحدي إلى تحد جديد ، والمغامرة إلى مغامرة جديدة ، وفي كل هذا كانت الثروة والقسوة تتجمعان في دارة الخاتون انتصار ، فتزيدها بهجة وإصرارا على الانتقام ..

في ليلة غاب عنها القمر ، بدأت قوات الاحتلال بضرب طوق على الأحياء الشعبية شرقي دجلة وبخاصة في منطقتي الميدان والحيدر خانة للبحث عن السلاح ، والقضاء على حالة الانفلات الأمني التي تجعل من عملية اختراق المنطقة ليلا مغامرة غير مأمونة العواقب ، فالنيران تنطلق بشكل شبه مستمر ، ولا يستطيع متابع أن يغامر بإعطاء تفسير عن أسباب هذا الرمي .جاءت القوات تدعمها الدبابات والطائرات السمتية ، وبدأت عملية التفتيش عن الأسلحة وإلقاء القبض على من يستطيع استخدامها ..

في الزقاق الأول بدأت المشاكل .. انطلق الرصاص على الجنود الأميركيين ذوي الحركة البطيئة بفعل تجهيزاتهم وملابسهم المضادة للرصاص ، فانتشر الرعب في صفوفهم ، وأخذت الطائرات والدبابات ترمي بيوت المنطقة دون تمييز أو تحديد للأهداف ..

فر سكان الزقاق عبر الأسطح المتلاصقة إلى مناطق أبعد لحماية أنفسهم في الوقت الذي تنادى فيه الشباب لمواجهة التدخل بواسطة القنابل اليدوية والقاذفات المحمولة على الكتف ..

حوصرت القوة الأميركية في الزقاق الأول ، وكان واضحا من زخم الرمي وغزارته أنها تحاول أن تحيط نفسها بستار ناري يقيها النيران المضادة ..

في هذا الوقت بالذات كان أفراد العصابة مجتمعين كعادتهم في بيت انتصار القديم .. يأكلون ويشربون ويمارسون نزواتهم وأحاديثهم ..

مع انفجار الموقف ، قرروا عدم التدخل والهرب إلى مخبأ آمن ، حيث أشار جاسم الريس إلى إمكانية الانسحاب إلى ساحة السباع حيث يقبع البيت شبه المهدم الذي لجأ إليه عندما استهدفت المقاومة دبابات الرشيد..

عند مغادرتهم البيت سقط صاروخ أطلقته إحدى السمتيات على جدار البيت المقابل ، فسبب الانفجار جرح أحد الشباب الذين يخدمون العصابة .. نقل إلى بيت قريب ، وكلفت العائلة الساكنة في البيت بالعناية بالجريح ، وخرجوا بعد أن رموا برزمة من الأوراق المالية إلى المرأة التي استقبلت الجريح .. أرادت الاعتراض في الوقت الذي اختفوا فيه ..

كان أمامهم اجتياز شارع الرشيد المحتل تماما من القوات الأميركية ، وكانت دبابة تقبع على بعد خمسين مترا من فتحة عرضها أقل من مترين تؤدي إلى أزقة متداخلة لا يمكن لجندي أميركي أن يفكر بمغامرة دخولها ..

انطلقت قذيفة صاروخية من خلف أحد الأعمدة في الشارع باتجاه الدبابة فضربت سرفتها وأشعلتها ..

رمى الجنود أنفسهم خارج الدبابة ، وهاموا بين الدخان ..

استغل الرجال هذا الموقف الذي لم يكونوا قد ساهموا فيه لعبور الشارع والانطلاق عبر الفتحة إلى الأزقة الملتوية ..

كان جبار الأسود الرجل الأخير الذي اجتاز الشارع ، وعند لحظة دخوله الفتحة ، اصطدم بجسم .. فكر في إطلاق النار عليه حين سمع صوتا نسائيا يتحدث الإنكليزية .. كانت مجندة أميركية خنقها الدخان والظلام ، فهامت على وجهها لتصطدم بجبار الأسود الذي لم يستطع إطلاقا الإجابة عن سبب اقتيادها ' وفرضها على المجموعة ، وهي في طريقها إلى مخبأ آمن ..

انطلقت العصابة حتى وصلت البيت ، حيث انهالت الأسئلة والشتائم على جبار لهذا الصيد الذي لا يعرفون كيفية التصرف به أو معه ..

وعلى الرغم من الحيرة والقلق ، كان جبار يقول :

ـ إنها رزق من السماء ، فلا تتبطروا على النعمة ..

كانت تحمل مسدسا ومصباحا يدويا وصدرية واقية من الرصاص وجعبة على الظهر فيها لفافات وحاجات فشل أفراد العصابة في معرفتها ..

قادها جبار إلى حنفية ماء في باحة البيت ، وطلب منها أن تغسل وجهها مستخدما لغة الإشارة ..

استجابت المجندة ، فقادها إلى غرفة للراحة ..

كان رصاص الأميركيين يسمع بوضوح ، وكانت الطائرات تحلق على ارتفاع واطئ ..

قال عزيز الأرمني موجها كلامه إلى جبار :

ـ اقفل باب الغرفة عليها ، وسنفكر غدا في أمرها ، فقد تكون ذات فائدة لا ندركها

الآن ..

ابتسم جبار ، وذهب لتنفيذ الأمر ..

قال عباس الحرية :

ـ لقد حصل ما حصل .. من الخطأ إبقاؤها في هذا المكان ، فهي بحاجة إلى حراسة وخدمة ، وإذا ما كلفنا أحد الشباب فإنه لن يفكر إلا في مضاجعتها .. أرى أن ننقلها غدا إلى دارة الخاتون ، ونترك لها أمر التصرف بها ..

قال جاسم الريس :

ـ أظن أن الفكرة معقولة ، ماذا تقول يا أسمر ؟

ـ أقول عن أي شيء ؟

ـ عن الفكرة التي تحدث عنها عباس ..

ـ إنه تحدث عن فكرتين ، فأيهما تقصد ؟

ـ لم أسمع إلا فكرة واحدة ..

ـ لا .. تحدث عن المضاجعة ، وتحدث عن تركها للخاتون ..

ـ عليك اللعنة ..

ضحك الرجال .. عاد جبار ، وسأل :

ـ ما الذي يضحككم ؟

ـ نم أيها الصعلوك ، والصباح رباح ..

احتج عزيز الأرمني قائلا :

ـ للجميع الحق في النوم .. أما جبار فإنه سيبقى حارسا حتى الصباح ٬ فهو الذي أوقعنا في هذه الورطة ..

* * *

استيقظ الرجال على صوت طرقات .. سحب كل منهم سلاحه ، وقفز إلى ركن من أركان البيت .. فتح جبار الباب ليدخل شاب يعمل معهم حاملا طبقا من الخوص يحوي إفطارهم .. سأل جبار :

ـ ما الأخبار ؟

ـ تضاعف عدد الجنود والآليات والدبابات .. إنهم يدخلون البيوت في المنطقة ، ويقتادون العشرات من الرجال ، وقد سمعت عبر مكبر للصوت أنهم يبحثون عن مجندة مفقودة ، وهم مستعدون لمنح مائتي ألف دولار لمن يقدم معلومات تقود إليها .. إنه

مبلغ كبير .. لماذا لا نبحث عنها ؟
بوغت الشاب بضربة وجهها له جبار ، فخرج متألما ..
أعدوا فطور المجندة ، فحمله جبار ، وفتح الباب ليجدها نائمة ..
ترك الفطور إلى جانب السرير ، وخرج لتناول فطوره مع الرجال ..
بعدها فكروا من جديد ، واتفقوا على الخروج من البيت ، ثم اللقاء ليلا بعد تهيئة مستلزمات نقل المجندة إلى دارة الخاتون ..
لم تنسحب قوات الاحتلال من المنطقة إلا في مساء اليوم التالي بعد أن بحثت ، ودمرت ، واعتقلت ، وحققت مع العشرات أملا في الوصول إلى خيط أو معلومة عن المجندة المفقودة ..
مع المساء تركت القوات جواسيسها وعروضها السخية ، وانسحبت , ليلملم السكان جروحهم ، وآلامهم ، وقهرهم ، ويواصلوا الحياة أملا في غد موعود قد يأتي أو ينأى .. من يدري ؟
نقل الشاب الجريح إلى المستشفى ، ولم يستطع المحققون الوصول إلى شيء معه .. فقد أصر على مقاضاة قوات الاحتلال ، فابتسم المحققون ، وأدخلوه المستشفى للعلاج ..
استكمل أفراد العصابة جولاتهم ، وفرضوا هيمنتهم بالمساعدة حينا وبالتهديد حينا آخر ..
عندما وصلوا إلى بيت انتصار القديم وجدوا رجلا عجوزا في انتظارهم .. كان متكئا على الجدار بشكل يوحي بأنه سيتداعى على الفور .. سأله عباس إن كان بحاجة إلى مساعدة أو خدمة .. أخبره الرجل العجوز إنه ينتظر في هذا المكان لأمر واحد لا غير هو أنه يعتبرهم على الرغم من سمعتهم غير الحسنة رجال المنطقة ، ومن غير المقبول أن يسمحوا لأحد الشباب ، وهو طالب يدرس اللغات في الجامعة أن يكون دليلا الأميركيين ، وهم يهاجمون البيوت ..
أخبروه بأنهم سيكسرون رأسه ، ويرسلونه إلى جهنم .. قاطعهم العجوز، ورجاهم أن يرحلوه عن المنطقة دون إيذاء ، فهو طالب ومن المؤكد أن ثمة عائلة تنتظره ، ثم أعطاهم العنوان ، وقال قبل أن يمضي بأنه سيزعل كثيرا إذا ما ألحق أذى بالطالب ..
أرسل الرجال اثنين من الشباب لجلب الطالب ، لكنهما لم يجداه في غرفته ، فأجلوا الأمر إلى وقت آخر ، ومضوا لتنفيذ ما اتفقوا عليه ..
الوقت : ليل ..
سيارتان ..
قاد الأولى عباس الحربة ، وجلس إلى جانبه جبار الأسود ، وعلى المقعد الخلفي اضطجعت المجندة مقيدة اليدين مكممة الفم بشريط لاصق ..
قاد السيارة الثانية عزيز الأرمني ، وجلس إلى جانبه أسمر ياقو ، واحتل المقعد الخلفي

جاسم الريس ..
كلفت السيارة الثانية بحماية الأولى ، وعرقلة أي تدخل لتوفير الفرصة أمامها للهرب والنجاة بالغنيمة ..
ابتعد موكب السيارتين عن جسر الجمهورية بسبب كثافة القوات عند مدخل القصر الجمهوري ، وتجاوز الموكب الجسر المعلق بسبب إغلاقه ، واتجه إلى جسر الجادرية لخلوه من وجود معروف لهذه القوات ..
في نهاية الجسر ، وبالقرب من التقاطع الذي يؤدي إلى شارع المطار .. كانت ثمة مفرزة للشرطة تدقق في أوراق السيارات ..
ما أن اقتربت السيارة الأولى من المفرزة ، حتى ضغط عزيز الأرمني على دواسة البنزين ، فانطلقت سيارته لتصبح حاجزا بين السيارة الأولى والشرطة .. احتج رجال الشرطة على تصرف عزيز ، وطلبوا منه أوراق سيارته ، في حين تحركت سـيارة عباس بهدوء ودون مشاكل .. أخذ عزيز يمزح مع الشرطة الذين تخلوا عن كل عنجهية أيام زمان ، وأصبحوا يكبتون مشاعرهم لإرضاء سائقي السيارات خوف انطلاق رصاصة تستقر في صدر أي منهم ..
استمر الموكب مواصلا طريقه حتى دخل بوابة دارة الخاتون في المنصور ..
أغلقت البوابة الرئيسة ، فنزل عباس الحرية مسرعا لملاقاة انتصار وإبلاغها بالضيفة التي جاءوا بها ..
عندما اقترح عباس نقل المجندة إلى دارة الخاتون ، لم يفكر بما قد يكون عليه موقف انتصار ، يشاركه في ذلك الرجال الأربعة ، وكأن رأيها أمر لا يستوجب الوقوف عنده أو أخذه بنظر الاعتبار ..
والحقيقة إنهم وإن كانوا غافلين عن هذا الجانب ؛ لا يتوقعون أن يكون لها موقف مغاير لموقفهم ، وهي من وضعوها في موقع المسؤول أو الرئيس الحريص على مصالح المجموعة بغض النظر عن تأثير الاطلاع أو المعرفة المسبقة بما يقدمون عليه من أعمال أو نشاطات ..
وعلى الرغم من ذلك ، كانت دهشتهم كبيرة ، وهم يلاحظون حماسا وفرحا في اقتياد المجندة إلى سرداب الدارة وإدخالها إلى غرفة ملحقة بالسرداب تبدو وكأنها زنزانة صممت لاحتجاز أشخاص لا يمكن أن يعرف بوجودهم أحد حتى وإن قضوا ساعات وهم يصرخون ..
هيأت الخاتون على عجل سريرا مريحا ، وأدخلته الغرفة ، وفتحت بنفسها وثاق المجندة ، وفركت لها وجهها ، وهي تقول بصوت سمعه جبار الأسود :
ـ كم كنت أتمنى أن تكون لي بشرتك الشفافة ..
كانت انتصار وحدها مع جبار في السرداب حين سألته :
ـ أنت من اختطفها ، أليس كذلك ؟

ـ وضعها القدر في طريقي ..
ـ هل أنت سعيد بها ؟
ـ لم أفكر في ذلك ، ولا أعرف ..
ـ ألا ترغب في النوم معها ؟
ـ الحق أقول أنني أرغب في النوم معك أكثر منها بمائة مرة ..
ضحكت الخاتون وقالت :
ـ لا تقلق ، سأستبقيك الليلة ..
كانت خطواتها مسرعة ، وهي تغادر السرداب .. لحقها جبار ، وهو مشدوه مما يرى ويسمع ..
قال عباس الحرية :
ـ أنت زعيمة حقيقية ، فقد كنا تخشى إزعاجك بهذه المجندة ..
ـ أبدا .. أشعر بالراحة وأنا أتخيلهم ذليلين لا يعرفون طريقا إليها ..
اقتادتهم إلى صالة الطعام ، وشاركتهم في شرب نخب إنجازهم في أسر أميركية ..
سأل أسمر ياقو :
ـ هل أصبحت تتعاطفين مع المقاومة يا خاتون ؟
ـ أنت تعرف إن الأمر ليس كذلك ، ولكن دعني أسألك ، ماذا تفعل هذه العاهرة في بلدنا ، أليس لها أب أو أخ أو زوج أو عشيق ليمنعها من حمل السلاح ، وقطع آلاف الكيلومترات .. ثم ألا يثيرك أن ترى امرأة أجنبية تحمل السلاح وتذل رجال بلدك ؟
ساد صمت على وجوه الرجال ، فقد كانت حجة انتصار قوية في إثارة نوازع رجولية في نفوسهم ..
قال أسمر :
ـ إنني لم أفكر على طريقتك ، وأجد أن ما تقولينه يلقى هوى في نفسي ..
قال عزيز الأرمني :
ـ لا أحب السياسة ، ولا أفهم فيها .. لكنني أقول إن الأميركيين خدمونا ، ولولاهم ـ من يدري ـ ربما كنا معدومين ..
عقب جاسم الريس :
ـ لا .. لقد أطلق سراحنا قبل وصولهم ..
ـ بتأثير تهديداتهم ..
ـ هل تعني أنهم كانوا يقصدون إطلاق سراحنا ؟
ـ لا أظن أنهم كانوا يفكرون فينا ، ولكن النتيجة خدمتنا ..
صاحت انتصار :
ـ لماذا لا تعقدون ندوة تلفزيونية لمناقشة الأمر ؟
ضحك الجميع ، فعقب عباس الحرية :

ـ أنا لا أحب الحكم السابق ، وقد بحثت عن مسؤول منطقتنا الحزبي .. وجدته بعد أيام يحمل طفلة صغيرة وكيسا من الخضراوات .. وقفت أمامه .. تجمد الرجل ، فقرأت في عينيه رعبا ممتزجا برجاء .. عز علي إذلاله أو ضربه ، فتركته .. لا أستطيع حقا أن أحب الحكم السابق أو الذين يدافعون عنه في الحق والباطل ، وفي الوقت نفسه أكره الذين يهاجمونه صباح مساء ، وهم أنفسهم الذين أدموا راحاتهم تصفيقا ، وجرحوا حناجرهم هتافا .. اللعنة .. لنشرب في صحة الخاتون ..

شربوا ، وأكلوا .. كانوا سعداء في تحللهم من ورطة تمثلت باختطاف المجندة ، وكانوا يشعرون بامتنان نحو انتصار التي حررتهم من المشكلة بل أنها تصرفت كما لو أنهم حققوا إنجازا ..

طلب الرجال المغادرة ، فنهضت لتوديعهم ، وهي تقول :

ـ مع السلامة يا رجال .. أما أنت يا جبار فستبقى ، ثمة مهمة تنتظرك ..

ظن الرجال الأربعة أن المهمة التي أشارت إليها انتصار تتعلق بترتيب وضع المجندة ، فتبادلوا الابتسامات وهم يتذكرون أنهم كلفوا جبارا بواجب الحراسة في الليلة السابقة ..

اقتادت انتصار جبار الأسود إلى السرداب ، وفتحت باب غرفة المجندة ، لتجدها جالسة على السرير ..

لاحظ جبار أن ثمة ملابس نسائية موضوعة على منضدة صغيرة ، وثمة صينية تحوي طعاما متروكة على الأرض قرب الباب ، وكان واضحا أن المجندة تناولت طعامها ..

قالت انتصار :

ـ هل تحتاجين إلى شيء ؟

نظرت المجندة إليها ، وابتسمت .. أدرك جبار إنها لا تجيد العربية ، وليس بينهما من يتحدث الإنكليزية .. أراد أن يلفت انتباه انتصار ، لكنه سمعها تقول :

ـ أعرف أنك لا تفهمين لغتي ، ولا أعرف لغتك ، ولكننا سنتفاهم ، أليس كذلك ؟

نظرت المجندة باتجاه جبار أملا في عون .. قالت انتصار :

ـ إنها تريدك أن تترجم لها كلامي ..

ضحك جبار ، وضحكت انتصار ، فاتسعت الابتسامة على وجه المجندة ..

ـ ستكونين بخير لا تقلقي ..

وعبر حركة مداعبة صغيرة من انتصار ، فهمت الأميركية أنها تطمئنها ، فهزت رأسها موافقة ..

ـ أ رأيت أنها تفهم .. أريد أن أسمع صوتها ..

أشارت لها بالكلام ، فتحدثت الأميركية ، وهي تحدق في عيون زائريها لمعرفة صدى كلماتها فيهما .. لكنها سرعان ما أدركت جهلهما باللغة ، فشعرت بالحزن ..

قامت انتصار ، ومسدت شعر المجندة ، وأشارت لها بأنهما لن يؤذياها ، ثم التفتت

إلى جبار قائلة :
ـ إنها بخير .. لنتركها ..
غادرا السرداب ، واتجها مباشرة إلى غرفة النوم .. أغلقت الباب ، وبدأت بنزع ملابسها ، وهي تقول :
ـ حدثني أيها الأسود .. لماذا تفضلني مائة مرة على الأميركية ؟
بوغت جبار بالسؤال .. قال :
ـ لا أدري إلى أي حد سيكون كلامي مفهوما .. إنني أشعر بأنك لست امرأة تثيرين شهوتي .. أنت جميلة وذكية .. والأهم إن ثمة معنى كبيرا في النوم معك ، وكنت أعدّ ذلك شيئا من الماضي وإنه لن يتكرر ، حتى ..
قاطعته انتصار :
ـ أي معنى كبير ؟
ـ ثمة فرق في النوم مع أميرة أو النوم مع شحاذة ..
ـ إذاً أنت تعتبرني شحاذة أصبحت أميرة ..
ـ لا أقصد ذلك ، أنا لا أجيد الحديث ..
تقدم منها .. شعرت أنه يعتصر صدرها ، ويطبق على فمها ، ثم يحملها بخفة ورشاقة ليضعها على السرير ، وهو يهمس في أذنها ..
ـ جسدي يتحدث أفضل من لساني ..
كان صادقا .. شعرت انتصار إنه يفترسها قطعة إثر أخرى ، ويمتص خلاياها التي تنبض بأكثر من قدرتها وتتحسس حركة الجسم وتتماهى مع ندائه الأصيل ..
ها هو جبار يعيدها إلى أنثى متعطشة ، وينفض غبارا كثيفا خلفته سنوات وسنوات من الممارسات المرتبطة بوظيفة أو هدف .. إنها الآن أنثى تحتفل بأنوثتها .. إنها تريد أن تستمتع وترتوي .. أما جبار فإنه يعتبرها جائزة صعبة المنال حصل عليها في لحظة لن تتكرر ، وعليه أن يقوم بالفعل وكأنه المرة الأخيرة ..
جسدان لم يهدءا ، وإرادتان اجتمعتا على المتعة ، وفورة أحالت الجسدين إلى مساحة مفتوحة لمباهج الغريزة ، وضرباتها التي تكاد توقف القلب وتفجر الخلايا ..

* * *

# الفصل السابع

استقبل بشار الكثير من الأصدقاء والمعارف والأقرباء ؛ جاءوا مهنئين بسلامة الوصول ، وكان شقيقه الأصغر محمد حاضرا أغلب هذه الزيارات ، وكان يتمتع بنباهة خاصة تعين بشارا على فهم الكثير من الحالات والظروف التي يجهلها أو يغفل عنها بفعل السنوات التي أمضاها في باريس ..

من الأشياء التي كانت تحيره إصرار أخيه محمد على عدم العودة .. إنه يذكر عشرات الاتصالات الهاتفية بينه وبين أهله ، وفي كل اتصال وعندما تذكر مسألة العودة كان لمحمد رأي ثابت في تأجيلها ..

كان يردد :

ـ لا شيء يستحق أن تغامر من أجله ..

وعلى الرغم من ثقة بشار بأخيه وحسن تفكيره ، فإن موقفه هذا ظل ذا جذور غير مفهومة ..

زيارات كثيرة سرعان ما يتركز الحديث فيها عن الوضع السياسي .. تطابق هش .. اختلاف قوي .. فما أن يتحدث أحدهم عن فكرة أو تصور حتى تنطلق تعقيبات وتعارضات من الصعب وقفها أو تهذيب كلماتها ..

أدرك بشار إن الآخرين فقدوا الكثير من صبرهم وقدرتهم على تحمل الرأي الآخر حتى وإن كان في الاتجاه نفسه .. فسر ذلك مع نفسه بأنه نتيجة ظروف وتعالقات سياسية ونفسية جعلت إمكانية إدارة حوار متحضر صعبة للغاية ..

كان محمد يقول :

ـ هل تذكر غطاء القدر الذي تحدث عنه غورباتشوف ؟ لقد رفع الغطاء نفسه ، ولا سبيل لإرجاعه ، ولا مناص من تلقي الأعاجيب ..

ـ غورباتشوف هو الذي رفعه ..

ـ نعم .. رفعه وهيأ لذلك ، أما غطاؤنا فقد رفعته القذائف الأميركية ، وهذا أشد وأقسى ..

فكر بشار :

إذا كانت لقاءاته تتم مع أشخاص ذوي مكانة اجتماعية وتحصيل دراسي وماض سياسي ، وهي على ما هي عليه من تأزم وانفعال وغياب حجة، فكيف يكون الأمر في مناقشات من لا تتوافر لهم هذه الميزات ؟ وإذا كنا نفشل في فهم وتقويم الخدمات الأساسية التي تقع على عاتق السلطة ، فكيف إذا ما انتقلنا إلى مستويات أشمل وأعمق ..

كان يستمع بهدوء ، ويحاول جاهدا ربط الخيوط وإيجاد القواسم الضائعة في الانفعالات ..

اكتشف آسفاً أن النقاشات التي تحصل هي محاولة صراع آراء وأفكار لا تجد طريقا إلى تلاقح أو تفاعل فيما بينها وكأن أصحابها مكلفون بقول رأيهم دون زيادة أو نقصان ودون أن يكون للآراء الأخرى ظل عليها ..

وكان أكثر ما يزعجه أن يسأل عن الدور المناط به أو الذي سيلعبه ، وكأنه جاء ليقبض ثمن إعلان معارضته لا غير ..

يقول محمد :

ـ لهم الحق في تساؤلاتهم ، فهم لم يجدوا أمامهم غير ذلك ، فلماذا تتعجب ؟

ـ وإلى أين يقود هذا ؟

ـ لا تتعب نفسك .. الزمن كفيل بالتغيير ..

زار بشار ونسرين وأمل يرافقهم محمد بيتهم في المنصور .. استفزت الأسلاك الشائكة والدعامات الكونكريتية التي زحفت إلى منتصف الشارع عائلة بشار ، فعلق محمد بأن الأمر حالة عامة لا تقتضي إعطاءها أهمية ..

كان بشار ينظر إلى دارة كبيرة تحظى بالعناية والاهتمام ، يتجلى ذلك من زهور الحديقة ونباتاتها ، ونظافة المدخل والجدران ..

قال محمد :

ـ إنها دارة الخاتون انتصار ..

ـ من تكون ؟

ـ واحدة من حديثات النعمة في هذا الزمن ..

ـ وكيف جنت أموالها ؟

ـ لا أعرف .. يقال بأنها تساعد الآخرين وتحل مشاكلهم ولها تأثير كبير في الدهاليز السرية ..

ـ متى سكنت المنطقة .. إنني أتذكر أن تاجرا ثريا كان يملك الدارة ..

ـ اشترت البناء بعد الحرب ، ولا أعرف شيئا عن أصلها ..

وصلوا بيت بشار .. كان منظره مؤلما .. أبواب وشبابيك مسروقة .. بلاطات مقلوعة .. حديقة تعاني من الجفاف والأدغال ..

دخلوا البوابة ، فخرج لهم رجل كهل عرف محمدا ، فرحب بالقادمين ..

قال محمد :

ـ هذا الرجل ( أبو ستار ) حارس سكن البيت بموافقتي بعد أن تعرض لسرقات متكررة ، وبعدما منعت شخصيا من الوصول إليه إثر مصادرة الدولة له .. بعد الحرب وجدته شبه مهدم ، فطلبت من أبي ستار السكن فيه وحماية ما تبقى ..

قالت نسرين وهي تحاول إخفاء دموعها :

ـ وماذا بقي كي يحرسه .. إنه خرابة ..

قالت أمل بتعجب :

ـ أهذا ما بقي من بيتنا الجميل الذي كنت أحدث صديقاتي عنه ؟

قال أبو ستار بتعاطف :

ـ الحمد لله على سلامتكم .. المال زائل ..

علقت نسرين :

ـ إنه بحاجة إلى ترميم شامل ..

كان بشار صامتا حين سأله محمد عن رأيه .. نظر إلى زوجته وابنته ، ثم عاد ونظر إلى البيت .. قال لأخيه بهدوء أنه لا يعرف أمن الأفضل بيعه أم إصلاحه ؟

كان واضحا إنه لم يقرر شيئا حول ما هو أهم .. مسألة استمراره أو العودة إلى باريس .. سأل :

ـ هل البيت ملكي ؟

ـ لحد هذه اللحظة هو ملك الدولة ، فقرار المصادرة ما يزال ساريا ولم يلغ ، ولكنها مسألة وقت لا غير ..

قالت نسرين بحماسة :

ـ سنعمل خلال أيام ، ونعيد البيت إلى ما كان عليه ..

انطلقت إلى الداخل لتفحص الغرف والصالات ، بينما فقد بشار رغبته بالدخول وبقي واقفا بين أدغال الحديقة يتأمل ..

احترم محمد رغبة أخيه ، فالتحق بالعائلة محاولا التخفيف من وقع الخراب عليهم .. بعد ساعة من الألم والحزن خرجوا من البيت .. استوقف أبو ستار محمدا وأخذ يحدثه .. طالت دقائق الانتظار .. هتف بشار :

ـ ما الأمر ؟

جاء محمد .. كرر بشار سؤاله ، فأجاب أخوه محاولا إخفاء غضبه :

ـ أبو ستار يفكر في مستقبله ..

ـ هذا من حقه ، ما شأننا بذلك ؟

ـ إنه يطالب بتعويض عند الخروج من البيت ..

ـ تعويض عن ماذا ؟

ـ عن سكن البيت وحراسته ..

ـ البيت مهدم لا أثاث فيه !!

ـ إنها أخلاق ما بعد الحرب .. لا تشغل نفسك دع الأمر لي ..

في تلك اللحظة شعر بشار أن مساحة جديدة فتحت أمامه لفهم موقف أخيه المعارض لعودته ..

تلاقت عيونهما ، فتبادلا ابتسامة فهم مشترك ..

زيارة العائلة للبيت تركت تأثيرات متباينة على كل من بشار ونسرين .. ففي الوقت الذي أطفأت الزيارة أية حماسة محتملة لدى بشار ؛ أشعلت نار حماسة قوية في نسرين للتغيير وإعادة البيت إلى سابق جماله ..

أخرجت الخرائط الأصلية للبناء ، وأخذت تفكر في إضافات وترتيبات تتفق مع رؤيتها الحالية لما يجب أن يكون عليه البيت العصري ..

أخبرت محمدا برغبتها ، فأجابها بوجود مكتب هندسي مختص قادر على الاستجابة لرغبتها ..
أما بشار فقد اكتفى بوصفها بالحمقاء ، وطلب من أخيه مرافقته لزيارة أبي نصير ..
كان أبو نصير مسؤولا قياديا في الحزب .. تمرض ، فطلب إحالته على التقاعد .. تمت الاستجابة للطلب لسبب لا يتعلق بمرضه قدر تعلقه بالرغبة في إبعاده ، فهو على حد تعبير بعضهم لا ينسجم مع مهمات المرحلة ..
فوجئ أبو نصير بالزيارة .. كان ذلك واضحا من تألق عينيه وارتعاش صوته ..
قال إنه كان يفكر كثيرا ببشار ، وهو لا يلومه على شيء مما حصل ، وها هي الأيام تثبت صحة الاعتراضات ..
سأله بشار عن تقويمه للأحداث ، ومشاعره تجاهها .. أشار كمن لا يرغب بالحديث ، ثم تمتم بأنه عمل ناقص يكتنفه الغموض ..
بعد صمت أشعر بشارا بالحرج ..سأل أبو نصير :
ـ هل تميل إلى نظرية الأخطاء ؟
ـ لم أسمع بها ..
ـ كيف .. الكل يتحدثون عن الأخطاء الأميركية بعد إسقاط النظام .. إنهم يعددون الكثير منها : عدم امتلاك تصور شامل عن الوضع / حل الجيش العراقي / إلغاء وزارة الإعلام / الوضع الأمني / .. هل استمر في التعداد ؟
ـ ألا تلاحظ يا أبا نصير أن الأميركيين لم يتحدثوا عن أخطائهم ؟
ـ نعم .. الآخرون يفعلون ذلك ..
ـ ماذا يعني ؟
ـ إنه يعني أنهم لا يشعرون بالأخطاء لأنها جزء من مخطط ..
ـ كيف ؟
ـ إنهم لم يسقطوا النظام بل أسقطوا الدولة كذلك ، فإذا ما افترضنا حسن النية فقد كان بإمكانهم إعلان منع التجول لعدة أيام بعد سقوط بغداد ، ثم دعوة الموظفين إلى وزاراتهم .. ذلك يحقق حماية الممتلكات ، ولا يتعارض مع سياسة التغيير إذا ما رغبوا في ممارستها على الفور ..
سكت قليلا ، ثم تحدث عن أن حل الجيش العراقي ليس خطأ ، بل هو قرار مقصود كي لا تتوافر لأية حكومة قادمة قدرة الحركة أو المطالبة بالانسحاب ، وهكذا يمكن فهم بقية القرارات ..
أمسك أبو نصير بيد بشار ، وأضاف :
ـ ابني موظف يعمل في الدائرة الهندسية لوزارة الإعلام الملغاة .. سألني يوما إن كنت قادرا على فهم عملية ترحيل وزير الإعلام السابق بطائرة خاصة انطلقت من مطار بغداد بعلم ورعاية الأميركيين في حين منعوا الراتب عنه وعن بقية موظفي الوزارة ..

ـ كيف أجبته ؟

ضحك أبو نصير ، واقتاد زائره إلى لوحة معلقة على جدار كتب عليها :

يا بنـي ..
إذا رأيت حربــا
جبــانها يثبـت
وشجــاعها ينـهزم
فانأ عنـها إلى رابيـة
وراقبـهـــا
تـر : أن في الأمـر
خيــــانة

قُسّ بن ساعدة

حين رأى أبو نصير استغراق بشار في التأمل .. قال ضاحكا :

ـ يبدو أننا نعتبر السياسة فتاة عذراء طاهرة ..

خرج بشار وأخوه من البيت .. قال محمد :

ـ أظن أن صاحبك يشتاق للتمثيل على طريقة أيام زمان ..

ـ لم ألاحظ ذلك عليه .. إنه رجل طيب القلب ..

ـ لا تنس موعدك مع خالد اليوم ..

* * *

بعد عودته من باريس التقى بشار بصديقه خالد عدة مرات ، كان محتارا مترددا بل متناقضا في بعض الأحيان ..

بين حماس غير مبرر ، وانطفاء بلا سبب .. أدرك بشار أن خالدا يمر بأزمة ..

عرض عليه رغبته في مناقشة هادئة كأصدقاء ، لكنه رفض مجرد الاعتراف بوجود أزمة أصلا .. حينها ضحك بشار كثيرا ، وقال ساخرا أن ذلك من تأثيرات الجو العام ، والعودة إلى الأصل ..
هذا المساء تحديدا كان خالد على غير الصورة التي توقع أن يجده عليها ..
يتحدث بتدفق .. يستجيب للملاحظة أو النكتة .. سريع البديهية ، وكأن همّا نجح في إزاحته عن كاهليه .. أبدى رغبة في الشرب ، ومع تصاعد التأثير انطلق ليختصر مشاهداته ، ويحولها بأسلوب ساخر إلى ما يشبه رحلة من أجل الضحك والتسلية ..
مبالغاته دفعت بشارا للسؤال عن أسباب التغير الطارئ ، فأخبره بأنه قد توصل إلى القرار الصحيح في الوقت الحاضر ، وأردف بأنه سيكتفي بهذه الزيارة ، ويعود بعدها إلى باريس ..
كان القرار مفهوما ، وهو لا يتعارض مع ما يدور في ذهن بشار أيضا .. نظر إلى صديقه ، فوجده يوجه الحديث إلى محمد ، قائلا :
ـ تعرف أن عائلتي في باريس ، وأسكن الآن في بيت أهلي .. أجلس صباحا ، وأرقب أمي .. إنها تودع إخواني وأخواتي بالدعاء وتبقى مشغولة قلقة لحين عودتهم .. مع كل انفجار أشعر أنها تدفع جزءا من حياتها خوفا على من هم خارج البيت ، ومع كل رشقة رصاص تتمتم بالأدعية .. أراها ساهمة تتحرك كمومياء ، فأمتلئ حزنا وكمدا عليها .. حاولت التخفيف من معاناتها .. تستمع وتدعو الله أن يرأف بنا .. إن بقيت شهرا إضافيا فإنني على يقين بأنني سأصبح نسخة مشوهة منها ..
رد محمد :
ـ لا أحد يستطيع الإحساس بمعاناة العراقي دون أن يعيش حياته .. إنني أتفهم الحالة ، ولا أستغرب رغبتك أو قرارك بالعودة إلى منفاك .. إن المنفى يتحول إلى وطن ، والوطن إلى منفى .. مفارقة حزينة ..
نهض خالد، وقال بأسلوب ساخر :
ـ أمي قلقة عليّ .. يجب أن أعود قبل سريان حالة منع التجول ، ومنع الفرح ، ومنع الحياة ..
سأل بشار :
ـ متى نلتقي ؟
ـ انتظرتك طويلا لتنضج قرار العودة إلى الوطن ، وأظن أن انتظاري لن يطول لإنضاج قرار العودة إلى المنفى كما يقولون !!
بعد خروج خالد ، انسحب بشار إلى غرفته ، ووجد نفسه يفكر بمفردات تتداعى في ذهنه ..
وطن .. منفى .. حرية .. حياة
يبدو أن الكلمتين الأولى والثانية متناقضتان ، بينما يظهر الترابط والانسجام بين

الكلمتين الثالثة والرابعة ..
ما العلاقة بين نون الوطن ونون المنفى ؟
وهل لموقع الأولى في نهاية الكلمة ، وموقع الثانية كحرف ثان علاقة بتناقض ظاهر وصلة سرية أشار إليها محمد في رده على خالد ؟
وهل لحرف الحاء الذي تبتدئ به الكلمتان الثالثة والرابعة صلة بتحديد انسجام ومعنى إيجابي ؟
ماذا لو تغير موقع الكلمات ، لتصبح :

وطن .. حرية
منفى .. حياة
أو :
وطن .. حياة
منفى .. حرية

من الواضح أن كلمة المنفى تختصر المسألة ، فالانسجام الشكلي متحقق بين الكلمات : وطن .. حرية .. حياة
إذن لابد من إعادة تعريف للمنفى لإسقاط المعنى القديم ، وتحميل الكلمة معنى جديدا معاصرا ..
وإذا ما كانت الحاجة قائمة لتعريف جديد للمنفى ، فلماذا لا تنسحب هذه الحاجة لتعريف جديد للكلمات : وطن .. حرية .. حياة ؟
ذلك ما نحتاجه ..
ذلك ما يفعله الجنون بنا ..
بعدها استغرق في النوم ..

* * *

قد يكون الحلم محطة راحة أو تحقيق توازن نفسي أو فسحة يمارس فيها العقل الباطن حريته في الإعلان عن نفسه ، لكن الكثير من أحلام بشار تذكره بقيوده ، وتخلق تعالقات غالبا ما تقلقه عند اليقظة ..
كان نائما ، متمتعا ببراءة كاملة من موعد مسبق مع الحلم أو معرفة بما يخبئ سلطان النوم ..
بشقاوة ومكر تقدمت ابنته أمل ، وسالت :
ـ لماذا تقول إن اللوحة قد سرقت ؟
بوغت فسأل :

ـ وهل تعرفين قصتها ؟
ـ أية قصة .. إنها لوحة جميلة تستحق أن نعلقها في الصالة ، وأنا مستغربة من حكاية السرقة ..
وكمن كان يدرك وجود اللوحة ؛ أخبر ابنته بأن تستبقي اللوحة في غرفتها كي لا تفسد المفاجأة التي يعدها ..
سألت أمل ببراءة :
ـ هل أغطيها ؟
أجابها وكأنه يسخر :
ـ أمك لن تستطيع رؤيتها ..
عادت أمل راكضة باتجاه غرفتها ، فشعر بشار بالراحة لأن أمل لا تعرف إيزابيل ، وليس ثمة احتمال بمعرفة إيزابيل بموقع اللوحة ..
بعدها وجد نفسه جالسا مع الأميركيين جون ورونالد في بغداد ، وكان يؤكد لهما أن منع التجول يسقط فرص إيجاد اللوحة ، وكانا يوافقانه الرأي ويبديان أسفهما وتبرمهما من الحالة ..
فتح بشار عينيه كان الظلام دامسا .. شعر بجفاف في الحلق ، وحاول النهوض لجلب كأس ماء ، لكن الظلام أثبط عزمه ، فعاد للنوم ..

* * *

دون استئذان ..
دون تمهيد ..
حلت الكارثة ..
كارثة تشبه فتيل بارود سريع الاشتعال يصطاد القلب ، فتكتوي الدواخل ، وتنسدل غلالة سوداء تعصب العيون ، وتصهر الذاكرة ..
جاء الخبر عاصفا .. لئيما .. غادرا ..
اختطفت أمل ..
صباح يوم الكارثة ذهبت أمل برفقة أمها إلى بيتهم في المنصور بهدف تسجيل النواقص والاحتياجات ، وتكوين فكرة عن متطلبات الترميم والإضافات التي تنوي نسرين القيام بها أو دفع بشار وإقناعه بضرورتها ..
كانت نسرين مشغولة في الداخل ، حين سمعت صرخة أم ستار زوجة الحارس .. نزلت من الطابق العلوي للبيت لتسمع أن ( أمل ) اختطفت ، وحملها رجلان نزلا من سيارة سوداء دون لوحة تسجيل تتابعها سيارة ثانية دون لوحة أيضا ..
كانت أمل واقفة أمام الباب تستطلع حدائق الجيران حين توقفت السيارتان .. نظرت

ببراءة إلى الرجلين اللذين نزلا من السيارة الأولى واتجها نحوها .. حملها أحدهما ووضع الآخر يده على فمها ، ووضعاها على المقعد الخلفي ..
للحظة أدركت أمل إن شيئا كابوسيا غير معقول يحدث .. عضت اليد التي تطبق على فمها ، وأطلقت صرخة ثاقبة ، انتبهت لها أم ستار ، فركضت باتجاه السيارتين اللتين تركتا خطوطا سودا على إسفلت الشارع بتأثير التعجيل الهائل الذي انطلقتا به ..
انهارت الأم ، فنقلها الحارس إلى مستشفى قريب ، واتصل بأهل بشار يبلغهم بالفجيعة ..
كانت الصدمة أكبر من قدرة الجميع على التحمل أو التفكير بما يتطلبه الموقف منهم ..
أول من استفاق منهم كان محمد الذي قصد على الفور أحد أصدقائه من ضباط الشرطة للإبلاغ عن الحادث واتخاذ التدابير الرسمية بشأنه ..
وبين تكرار سرد الحادثة ، والذهاب لمعاينة الموقع ، والاستماع إلى التحقيقات التي أجرتها الشرطة مع الحارس وزوجته وبعض سكان البيوت القريبة ، أدرك محمد أنه أهمل الحالة المرعبة التي ترك أهله وشقيقه فيها ..
عاد إلى البيت ومنه إلى المستشفى ، وهو في حركته يحاول جاهدا أن يمثل دور المتماسك المتفائل بالإجراءات المتخذة ..
كان بشار مذهولا لا يعرف كيف يتصرف .. رفض الذهاب إلى المستشفى ثم عاد ووافق .. أدمى رأسه باصطدام غير متوقع بباب المطبخ .. يمشي، ثم يتوقف بانتظار من يقوده أو يوجهه ، وهو في كل ذلك يزيد من وقع الكارثة على أهله وبخاصة شقيقه محمد ..
كم دامت حالة فقدان التوازن ، وفقدان القدرة ، وفقدان التركيز ؟
ساعات ونهارات وليالي تمنى بشار خلالها الموت للخلاص من الألم والحزن وقلة الحيلة ..
دوامة من لقاءات ومراجعات وعمليات بحث واتصالات أخفقت في إقناع القلب المكلوم بأن ثمة فسحة من الأمل ما زالت قائمة ..
تذكر بشار نصيحة الأميركيين اللذين طلبا منه الاتصال بشخصية أميركية تدعى ديك كاستنر ، وأكدا في حينها أنه يمتلك تعليمات بشأنه ..
اتصل بشار ، واتفقا على موعد ..
على الرغم من كل آلامه وحيرته ، شعر أن كاستنر قد يكون مفيدا ..
كان الترحيب والود اللذين استقبل بهما بشار كبيرين .. حاول كاستنر أن يتحدث عن صورة الوضع السياسي والأمني الذي يراه في العراق وتفاؤله بحدوث تغييرات إيجابية ، لكن بشارا استوقفه ، وذكر إنه غير قادر على فهم حرف مما يقول ، وقد لجأ إليه لمساعدته في إيجاد حل للكارثة التي يعيشها ..

صمت كلستنر ، وأخذ يستمع إلى بشار .
في نهاية حديث مملوء بأوجاع تنطق بها ملامح الوجه .. قال كاستنر إنه متأثر كثيرا ، ووعد أن يتابع الأمر شخصيا ، ويبلغه بالتطورات ..
لم تقو قدما بشار على حمله عندما حاول النهوض .. ساعده وهو يشدد على بذل كل ما يستطيع ..
بعد أيام لم تسفر المساعدة المنتظرة سوى عن اتصال برجال الشرطة ودعوتهم للاهتمام بحادثة الخطف ..
في كل ليلة يجتمع فيها بشار مع أهله وأصدقائه ويناقشون إمكانيات البحث أو الاتصالات المطلوبة كان خالد يؤكد أن الخاطفين ينتظرون هدوء العائلة كي يجروا اتصالا لتحديد الفدية التي يطلبونها ..
ومع كل رنة من رنات الهاتف يجفل بشار ، ويأمل أن يكون الخاطفون على الطرف الآخر ..
كل المسؤولين الجدد الذين يعملون مع سلطة الاحتلال قابلهم أو على الأصح قابل من يعرف منهم .. وكلهم دون استثناء تأثروا للحالة ووعدوا بالمساعدة ، وحين تكررت الاتصالات عن مصير المساعدة التي وعدوا بها ؛ أنكروا وجودهم ، وكان بشار يستمع إلى الاعتذارات عينها من أمناء سرهم ..
لجأ إلى المسؤولين السابقين ممن يعرف اهتماماتهم وعملهم في الأجهزة الأمنية ، وكأن ثمة اتفاقا بين المسؤولين السابقين والجدد على إتباع الخطوات والأحاديث نفسها معه ..
عقب أخوه على الحالة فقال إن من يستطيع المساعدة لا سلطة له ، ومن يملك السلطة لا يعرف كيف يساعد ..
لكن بشارا كان يشعر في قرارة نفسه أن الظروف مسؤولة عن فشل الجميع في تقديم مساعدة حقيقية تقود إلى عودة ابنته ..
تمضي الأيام ، ويتعمق اليأس ، وتنفتح مسارات جديدة لا توفر قراءة الفنجان أو الكف أو البحث في أروقة البصارين والعصابات للوصول إلى أمل ..
مساء يوم مترع بالشك طلب محمد من أخيه أن يرافقه في زيارة قد تكون نافعة ..
بلا مناقشة أو استفسارات اتجه الأخوان إلى المنصور ، فسأل بشار إن كان الهدف بيته . أجاب محمد بأنهما متجهان إلى بيت قريب من بيته للقاء مع الخاتون انتصار .. تذكر بشار الاسم ، فصمت ..
في صالة دارتها كان يفكر في حلمه الذي رآه ليلة خطف أمل ، وكان يبحث في العلاقة بين فقدان لوحة إيزابيل وبين معرفة مفترضة لأمل بهذه اللوحة / معرفة منحها حلم لا غير / وبين خطفها ..
تفكير لا يلتزم بقوانين المنطق بل يدحض هذه القوانين للاستجابة إلى صوت القلب

الممزق ..
دخلت الخاتون ، فنهض محمد لاستقبالها ، ولما أحس أن أخاه شارد الذهن .. تعمد نتر ملابسه .. انتبهت إلى حركة محمد ، فعلقت بأنها لا تعتب على رجل مشغول الذهن ..
جلست على مبعدة منهما ، وعندما عرّف محمد بأخيه ، وعمله السياسي السابق ، ومعارضته للنظام ، كانت انتصار تصغي باهتمام ، ولكنه حين ذكر أنه يمتلك البيت القريب من دارتها ابتسمت ، وقالت بود إنها سعيدة أن تلتقيه ، فحق الجار على الجار ، وأبدت ملاحظة حول صمته ، فرفع عينين أطفأ الإجهاد بريقهما ، وقال :
ـ كنت أنتظر أن تنتهي مهمة التعريف ، وسأكون أسعد إنسان لو استطعت رؤية ابنتي أمل ثانية ..
نظرت الخاتون إلى محمد مستوضحة ، فأخبرها بالتفاصيل المتعلقة باختطاف أمل ، وما فعلوه وقاموا به من إجراءات أخفقت في الوصول إلى شيء ..
ـ اسمها أمل وهي ابنة جيراني ، واختطفت قرب بيتي .. هذا لا يصح ، ولن يكون.
صمتت قليلا ، ثم ابتسمت ، وسألت :
ـ ما هي مكافأتي بعد عودتها ..
ـ أي شيء ، وكل شيء .. إنني أتنازل عن بيتي لك ..
لم تعقب ، ففكر بشار إنها تروز العرض ، وربما تريد أن تتأكد من مصداقيته .. قال :
ـ وأنا مستعد لأية ضمانات تقنعك للإيفاء بعرضي ..
لم يبد عليها أن الكلمات لامست شيئا في نفسها ، فتجاهلتها ، وسألت :
ـ كنت تعيش في الخارج .. أليس كذلك ؟
ـ نعم ..
ـ ما اللغات التي تجيدها ؟
دهش الأخوان لأسئلتها غير المتوقعة ، فقال محمد :
ـ إنه يجيد الفرنسية والإنكليزية ، ولكنني لا أجد علاقة بين اللغات والموضوع الذي نناقشه ..
ابتسمت ، وبدت عليها ملامح التفكير .. ثم قالت في هدوء :
ـ أكثر ما يعنيك الآن الوصول إلى ابنتك ، ولا أتوقع أن تكون لك اهتمامات أخرى غيرها في الوقت الحاضر ..
ـ هذا صحيح ..
ـ سأنتظرك عند منتصف الليل في دارتي ..
عقب محمد :

- إنه لا يستطيع المجيء في هذا الوقت ، فأنت تعرفين إن منع التجول ..

قاطعته :

- بيته قريب ..
- لا ، إنه يسكن مع أهله الآن ، وليس في بيته سوى الحارس ..
- حسنا، تعال يا أبا أمل في الحادية عشرة ، ولا تفكر في العودة ، فأنت ضيفي ..

نظر الأخوان إلى بعضهما ، وقالا في وقت واحد ودون اقتناع :

- حسنا ..

نهضت انتصار ، وقالت :

- سأستقبلك وحدك .. هل تحتاج إلى حماية أخيك ؟
- لا .. سأكون حاضرا في الوقت المحدد ..

غادر الأخوان الدارة .. وعلى الرغم من أن محمدا اتهمها بالجنون والادعاء ، فإن بشارا شعر بشيء جديد قوامه أنها تستجيب إلى رغبة تخامره .. رغبة تدمر قواعد المنطق وتسخر منه ..

* * *

قبل وصول بشار إلى دارة انتصار ليلا ، كانت استدعت كلا من عباس وجبار ، وأخبرتهما بشكل جاد وصارم إن أمامهما فرصة لتسوية وضع المجندة الأميركية المختطفة ، والحصول على أموال أيضا ، وذلك يتوقف على قيامهم بتتبع قضية اختطاف أمل ، وشرحت لهما وضع أبيها الخاص وإمكاناته وعلاقاته ، وظروف الاختطاف ..

أخبرها عباس بأنهم سيفعلون المستحيل ويجدونها ويعيدونها إلى دارتها، والخاتون ليست بحاجة لتقديم شروحات تسوغ فيها أوامرها أو رغباتها ، يكفيها أن تشير وهم ينفذون ..

قالت انتصار إنها فكرت أن توضح أهمية الموضوع ودقته ، وهي واثقة من قدرة رجالها على تحقيق ما عجز عنه الأميركيون ورجال الشرطة ..

غادر عباس وجبار مع وعد بالتفرغ لهذه القضية دون سواها ..

في الحادية عشرة استقبلت بشارا .. سألته إن كان تناول عشاءه فأكد لها ذلك ، فأخبرته أن أمامه ساعة كاملة يستطيع فيها أن يشرب ما يشاء أو يتمشى في حديقة الدارة ، ثم تركته ، وغابت في جناح آخر للدارة ..

كانت تنتظر حلول منتصف الليل ، وهو الموعد الأخير لانسحاب آخر الخدم إلى غرفهم

والخلود إلى النوم ، وبذلك تكون الدارة خالية للبدء بما فكرت فيه ..
وجد بشار في تصرفات الخاتون وحديثها تسلية تثير في نفسه الدهشة والإعجاب .. ذلك أنها تفاجئه ، وتسقط أية إمكانية لقراءة دواخلها ..
جلس قليلا ، ثم أخذ يتمشى في الصالة ، فلاحظ في ركن ملحق بالصالة خزانات من خشب الزان تحوي أنواعا نادرة من المشروبات .. دون تفكير تقدم نحوها ، واحتسى كأسين من الكونياك ، ثم غادر باتجاه الحديقة ..

الرصاص ينطلق من اتجاهات مختلفة ، وكأن المطلقين يمارسون هوايتهم اليومية في إدامة زخم الرمي لتأكيد حقيقة أن بغداد هي العاصمة الوحيدة في العالم التي ينام أبناؤها على أصوات الرصاص ، ويصحون على الأصوات نفسها ..
بمرور الوقت يتعلم الإنسان التآلف مع الأشياء والأوضاع أقساها وأجملها ..
فكر بشار في قلقه الأول من الرمي المجاني ، وتساؤلاته عنه .. تروض حتى بات الانتباه إلى مصادر الرمي وكثافته ترفا لا يصح التفكير فيه ..
في حديقة الدارة أصغى إلى أصوات الرصاص ، وبدأ يميز ويصنف الاطلاقات حسب نوع السلاح المستخدم ..
رشقة من بندقية كلاشينكوف ..
رشقة من رشاشة متوسطة قد تكون بي كي سي ..
رشقات من رشاشات أميركية مختلفة تمتاز بضخامة الصوت وفقدان الصدى ..
اطلاقات منفردة قد تكون لمسدسات قريبة أو رشاشات وضعت عتلتها على وضعية الرمي المفرد ..
عصف انفجارات لقنابل أو عبوات ناسفة ..
ثم تشترك الأسلحة كلها في تراشق ؛ تتداخل فيه الأصوات ، وكأنها فرقة موسيقية تعزف نشيدا حماسيا ..
ليلة لم يفكر بمثلها .. إنها مساحة تنفتح على توقعات لا نهاية لها ، ولو لم يكن في حالة فقدان التوازن والاتجاه والفعل ، هل كان سيوافق على تنفيذ طلبات وشروط ، والاستماع إلى أحاج ؟!
وقتها لم يكن قادرا على رؤية عقارب الساعة بسبب الظلام ، لكنه قدّر أنها الثانية عشرة ..
عاد إلى الصالة ، فوجد الخاتون جالسة في صدرها ، وأمامها كأس من الكونياك ..
قالت :
ـ أحاول تقليدك في شرب الكونياك ..
فكر أنها كانت ترقبه ، فابتسم ..
قالت :
ـ أعرف قلقك ، وحزنك ، ولكني أطمئنك بأنني سأصل إلى نتيجة نهائية خلال يومين

لا أكثر ..
فكر إنها تتحدث عن نتيجة وليس عن عودة أمل ، قال :
ـ النتيجة التي أريدها هي عودتها ..
ـ آسفة .. تعودنا على حديث يجرح المشاعر ، فلحد الآن لا أمتلك معلومات عن خاطفيها أو حياتها ، لكنني أؤكد لك أنها ستعود ، ولو حدث لها مكروه فلن يسلم الخاطفون من غضبي وانتقامي ، وخلال هذين اليومين ولحين وصول ابنتك ، فإني أطلب تعاونك معي لقاء تعاوني معك ..
ـ أنا حاضر ..
ـ لا تهمني عروضك المالية أو بيتك .. إنني أطلب مكافأة أو تعاونا من نوع آخر ..
ـ كل ما أستطيع فعله أو تقديمه هو تحت تصرفك ..
ـ حسنا .. إنني أبدأ طلبي بضرورة الحفاظ على سرية كل ما أقول وكل ما ستفعل أو ستعرف ..
بدأت ضربات قلب بشار تتسارع .. قال :
ـ أؤكد على تلبية أية رغبة أو أمر بسرية تامة ..
ـ ولا يجوز لأخيك أن يعرف ..
ـ لن يعرف أي شيء ..
ـ سأكلفك بمهمة سهلة هي أن تكون مترجمي الخاص .
فتح بشار عينيه دهشة ، فأضافت :
ـ ستقوم بالترجمة ، وسنلتقي مع ضيفة أميركية في دارتي الآن .. هل تحتاج إلى توجيه أسئلة ؟
ـ سأفعل أي شيء ، ولا أحتاج لغير عودة ابنتي ..
ـ لا تحدثني عن أمل .. قلت لك إن أمامك يومين .. هل أنت جاهز ؟
ـ نعم ..
ـ إذاً اتبعني ..

*　　　*　　　*

امرأتان ورجل ..
غرفة ملحقة بسرداب كبير أسفل الدارة ..

الوقت بعد منتصف ليلة بغدادية عاصفة ..
ملامح .. انفعالات .. توقعات ..
الأميركية ترقب الرجل الغريب الحزين الذي يترجم للسيدة ..
وبشار مأخوذ بما يرى ويسمع ، ويتأمل الضيفة الأميركية التي لم تكن سوى مجندة مخطوفة .. لماذا لا تكون ابنته في غرفة أخرى ؟ وأي سر يجعل من امرأة ثرية خاطفة ؟
أما انتصار فقد قررت أن تمارس متعتها في السيطرة والإذلال على طريقتها الخاصة ..
تلتقط تهدج الصوت ، ونداء الرجاء في العيون ، وحيرة القلوب ، وعجز العقول .. إنها تنتقم .. فهذا الرجل العراقي نصف الأوربي أحالته إلى محض دمية في يديها ، وهو ممتن للمساعدة التي تقدمها ، ذلك بسبب محنته ، وعندما فكرت انتصار بتكليف بشار بالترجمة لها ، كانت تعتقد أنها اختارت أكثر الرجال أمنا وصمتا ، فلا أحد يدفع لمترجم مبالغ بالملايين لقاء ترجمة حديث أو لقاء .. ألم يعرض بشار بيته وأمواله لقاء عودة ابنته .. إنها توفر كل ذلك مقابل خدمة بسيطة هي الترجمة، فكيف يمكن لإنسان أن يخون سر عمل قام به ومنح لأجله الملايين ؟ ومنح ما هو أكثر من ذلك : ابنته ..
على بشار أن يكون أمينا صادقا معها ، ولا خيار لديه غير ذلك ..
وعلى الأميركية أن تكون ممتنة للخدمة والرعاية اللتين تحظى بهما في دارتها ، بدل إسكانها في خرابة لتستقبل رجالا لا يفكرون إلا بأنوثتها ..
اكتشف بشار أن الخاتون لا تعرف شيئا عن المجندة .. لا تعرف حتى اسمها ، ولم تكن في أسئلتها معنية من قريب أو بعيد بعمل المجندة والقوات التي تعمل ضمنها أو أية تفاصيل عسكرية أو أمنية ..
لماذا اختطفتها إذن ؟!
كان السؤال يدور في ذهنه دون قدرة على توجيه أسبابه أو استنتاجها من خلال الحديث ..
سألت الخاتون عن حياة الأميركية ، وطلبت وصفا لبيتها في أميركا ، ووصفا للحي الذي تسكن فيه .. طلبت الحديث عن أصدقائها وصديقاتها .. أرادت الاستماع إلى تفاصيل عن الحياة العاطفية لها ، وممارساتها الجنسية ..
كانت المجندة ، واسمها جاكلين تجيب وتجيب ، وتطلب نظراتها العون من بشار الذي كان أكثر حيرة منها ..
حاولت جاكلين مرات متعددة أن توجه أسئلة ، لكن الخاتون قاطعت كل المحاولات ، ففهمت المجندة وفهم بشار أنها لا تحب أن يوجه أحد أسئلة إليها ..
لاحظ بشار أيضا أن أسئلتها شخصية ، وهي من تلك الأسئلة التي يحق للأصدقاء

في أوربا أن يعتذروا عن الإجابة عليها لأنها تنتهك خصوصياتهم ، لكن الخاتون غير معنية بذلك ، وليست جاكلين في وضع يسمح لها بالاعتراض ، وهو أيضا لا يملك سوى حق الترجمة ..

وعندما سألت :

ـ لماذا جئت إلى العراق ؟

لم تكن تشير إلى سياسات أو أطماع .. إنها تستهدف إيجاد علاقة شخصية بين جاكلين ومجيئها ..

تحدثت المجندة عن ظروف صادفتها في الدراسة ، وتحدثت عن خلاف مع عائلتها ، وتحدثت عن رغبة في المغامرة ، ورغبة في الحصول على مكاسب وامتيازات .. تحدثت بصدق شديد ، وأعقبت كل ذلك بأنها لم تكن تتصور إطلاقا أن يكون الوضع على ما هو عليه .. شعرت بالخوف وتمنت العودة ..

كانت الخاتون تستمتع ، وهي تصغي إلى حديث الأميركية التي فسرت الإصغاء تعاطفا ، ففاضت لإحداث المزيد من التأثير العاطفي عله يساعدها في محنتها ..

قالت وكأنها توجه كلامها إلى بشار إن جاكلين كانت تحتاج إلى رجل يشكمها ، ويشبعها ، بدل حالة الاستهتار التي مارستها ..

حين سمعت جاكلين تعليق الخاتون أصيبت بخيبة أمل .. كانت تأمل إحداث تغيير لصالحها ، وها هي لا تجني سوى وصف الاستهتار ..

سألتها إن كانت تشكو نقصا في الخدمة المقدمة ، أكدت جاكلين أن الخدمة المقدمة ممتازة وهي لا تحظى بها في بيتها أو في الجيش ..

التفتت إلى بشار ، وقالت :

ـ قل لها أنني مستعدة لإرسال رجل يمتعها في الليل إن هي رغبت في ذلك ..

صمت بشار ، وشعر بالحرج من ترجمة الكلام .. أكدت الخاتون على ترجمته ، وإنها بانتظار جواب واضح ..

قالت الأميركية إنها تشكر السيدة ، وهي لا تفكر في الجنس . . ضحكت الخاتون ، وعلقت ساخرة أنها لا تمانع إذا ما كان لديها رغبات أخرى..

دهشت جاكلين ، وقالت برجاء إن كانت قادرة على معرفة زمن احتجازها أو الهدف منه ، فهي تلاحظ أن السيدة غير معنية بالسياسة أو الشؤون العسكرية ..

سمعت الخاتون ، ولاح على وجهها تعبير ماكر ، سألت إن كان خروج الأميركية لا يشكل خطرا عليها ..

أكدت جاكلين أنها ستعمل أي شيء لضمان عدم تعرض السيدة لأية مساءلة أو ملاحقة ..فعقبت الخاتون بأن كل الضعفاء يكونون ناعمين مطيعين ، وإذا ما تغير الوضع فإنهم ينقلبون إلى وحوش كاسرة ..

للحظة فكر بشار أنه معني بالتعليق ، وشعر أن أي تدخل أو توضيح يفسد وضعه ،

فلاذ بالصمت ..
نهضت الخاتون ، فتقدمت جاكلين وكأنها تحاول تقبيل يدها ، فقالت لبشار إن كان يلاحظ كيف يتحول الضعف إلى ذل .. هز رأسه ، فقالت جاكلين إنها سعدت بوجوده ، وهي المرة الأولى التي تتحدث فيها مع أحد بعد اختطافها ورجته مساعدتها .. توقفت انتصار ، فأحس بشار أنها تريد معرفة كلام جاكلين معه ، فترجمه لها .. علقت ضاحكة :
- أنت سعيد الحظ ، فالكل واثق فيك ..
فكر بشار بمفارقة أن يوصف وهو في وضعه بسعيد الحظ ، ولكن كل شيء جائز في مملكة الخاتون انتصار ..
جلبت انتصار كأسين من الكونياك .. قدمت أحدهما إلى بشار الجالس في الصالة ، ثم ارتمت على مقعد مريح ، وكأنها أنجزت مهمة حققت لها راحة ونشوة ..
- انتهى زمن حجر الأسئلة ، إنني أسمعك ..
قبل اللقاء مع جاكلين أحس بجفاء معاملتها ، ورغبتها في التحكم والسيطرة وإصدار الأوامر ، وها هي الآن تنقلب إلى سيدة مضياف .
فكر : ليس أمامه غير المضي في هذه الطريق إلى النهاية إلى عودة أمل .. قال :
- لا أريد أن أكرر سؤال الأميركية ، لكنني أجده معقولا ..
- حسنا ، أنا لم اختطفها أو أكلف أحدا باختطافها .. إنها هنا كخدمة أؤديها لأصدقاء ، وبقاؤها لن يطول ..
في اللحظة تلك رن الهاتف ، فنهضت ، وهي تتعمد الكشف عن مساحة كبيرة من فخذها ، سمعها تقول :
- وما هو هذا الأمر العاجل ؟
صمتت لمدة دقيقتين ، وهي تحدق في عيني بشار الذي شعر بإرتعاشة ، عادت لتقول :
- لا أريد دماً .. الاتفاق أفضل .. المهم أن تكون البنت في دارتي مساء غد على أبعد احتمال ..
أطبقت سماعة الهاتف ، فنهض بشار .. قالت :
- ابنتك موجودة لدى عصابة مبتدئين يفكرون في استغلالك لأنهم اعتبروك ثريا ، سنرمي لهم ببعض المال .. المهم أن تعود أمل ..
قفز باتجاهها وأخذ يقبلها ، قائلا :
- أنا حاضر لأي مبلغ يطلبونه ..
- لا .. لا علاقة لك بالأمر .. وعدت أن أعيدها وتلك مسؤوليتي .. أما أنت فقد أديت ما عليك ، ولا أجد ضرورة لتذكيرك بوعد السرية والصمت ..
- على رقبتي يا منقذتي ..

**ـ هل تشعر بالتعب ؟**
**ـ لا .. أشعر أن جبلا أزيح عن كاهلي ..**
**ـ انتظر لحين عودتها يا رجل ، ودعنا نشرب الآن .. إنني أرغب في الاستماع إليك..**

*　　　*　　　*

# الفصل الثامن

عاد بشار إلى البيت صباحا ..
بين عبرة مخنوقة ، ودموع تسيل ، وصيحات فرح ؛ استقبل في بيت أهله ، وكلهم رجاء في سماع ما يطفئ جمرة القلق في نفوسهم ..
كانت نسرين تنظر إليه بحزن وشفقة ، فمنذ خروجها من المستشفى كانت تلوم نفسها ، وتعدها مسؤولة عما جرى ..
أمسك بشار بيديها وقال :
ـ ستعود أمل مساء هذا اليوم ..
شهقت نسرين ، وطالب الأهل بالتوضيح والتأكيد ، لكن بشارا أصر أنه لا يستطيع إلا أن يؤكد عودتها مساءً ، والفضل يعود إلى الخاتون والجهود التي بذلتها لتحقيق النتيجة السعيدة ..
عمّ الفرح أركان البيت الحزين ، وأخذ بشار يجيب عن أسئلة لا نهاية لها عن الموعد المحدد بالضبط ، وما هو حالها ؟ هل كانت تأكل ؟ ألم يؤذها أحد ؟
سلسلة أسئلة لم يكن يمتلك إجاباتها ، فكان يبتسم ويقول :
ـ انتظروا للمساء وستعرفون كل شيء ..
على انفراد سأله محمد عما جرى ، فكرر ما قاله .. عاد وسأل :
ـ كيف استطاعت الخاتون الوصول إلى الخاطفين ؟
أجاب بشار بأنها كلفت بعض معارفها .. قال محمد إنه يشعر أن شيئا غير مفهوم يجري ..
أجاب بأن المهم أن تعود أمل ..
وافقه الأخ وإن لم تختف الأسئلة في عينيه ..
ثم وكمن يرمي سهمه الأخير ؛ سأل عمن سيوصلها إلى البيت .. أخبره بشار بأنها ستكون في دارة الخاتون ، وسيتسلمها هناك .. قال إنه سيرافقه .. لم يوافق ، وقال إن ذلك جزء من الاتفاق ، فسكت محمد على مضض ..
كان في غرفته حين سمع زوجته تحدث أمه .. كانت تقول إنها بدأت تفهم سر القلق والتخوف الذي انتاب بشارا حين كانت تحدثه عن العودة ، وتفهم صمته وعدم مشاركته ، وسلبيته فيما يتعلق بترميم البيت .. كان محقا ، وهو يحاول حمايتنا من أخطار ما كنا نراها .. من كان يتصور أن يحدث ما حدث ؟
على طريقتها حاولت الأم تهدئتها ، وقالت لها إن عودة أمل فرحة ينبغي ألا تعكر .. التوق لأمل أكبر من قدرة قلوبهم وأحاسيسهم على الهدوء .. الانفعالات تعصف بالجميع ، وتثقل الساعات التي تفصلهم عن موعد العودة ..
قبل المساء وحين غادر بشار باتجاه دارة المنصور ؛ كان للرجاء صوت وطعم ورائحة ، يسمعه ويتذوقه ويشمه ..
الدارة هادئة ، والصالة نظيفة ..

فجأة فكر بشار بجاكلين المحجوزة في السرداب ، وتساءل مع نفسه إن كان أهلها يعرفون حالتها أو يفكرون كما يفكر هو بابنته ..
جاءت انتصار مبتسمة مشرقة .. رحبت به بود أشعره بأنه يعرفها منذ زمن طويل ..
قالت : إن الدقائق طويلة والساعات أيام ، أليس هذا ما يشعر به ؟
أجاب إنه يقدّر تعاطفها ، ويأمل أن تتأكد الصداقة مستقبلا ..
في هذه الأثناء كان صوت محركات الدبابات التي تعبر الشارع المقابل للدارة صاخبا ..
قالت إنها لم تعد تفرق بين أصوات محركات الدبابات وأصوات الطائرات السمتية .. سمعا بعدها أصوات طائرات تحلق في سماء المنطقة ..
جاء أحد الخدم ليخبر سيدته أن مئات الجنود الأميركيين يطوقون المنطقة ..
قالت بهدوء ربما يكون الأمر تفتيشا روتينيا أو بحثا عن السلاح أو ملاحقة لمطلوب ..
تأملها بشار وشعر بتقدير لصمودها وهدوئها في مواجهة حالات طارئة ، وسأل إن كان ذلك لا يؤثر في عودة أمل ..
قالت إن رجالها أكفاء ويجيدون التصرف في الأوقات والحالات الحرجة ، وأخبرته أن عليه أن يهدأ ..
طلبت فنجانين من القهوة ، وجلست تنتظر كملاك برئ ..
رشقات الإطلاقات الأميركية تضفي على جو المكان توترا يحس به ولا يلاحظه على وجه انتصار أو حركاتها ..
وقع خطوات راكضة .. أحد الخدم يصيح أن الأميركيين على سطح الدارة .. نظرت انتصار من خلال النافذة ، وتمتمت إنهم في الحديقة أيضا .. حاول النهوض ، فأجلسته بإشارة من يدها .. نظر باتجاهها ، كانت عيناها تحرقان وجهه .. عرف على الفور أنها تفكر في خيانة محتملة .. قال : لست أنا من يعض يدا امتدت نحوه بالخير ..
قالت : هذا ما أتوقعه منك ..
اقتحم ضابط ومجموعة جنود الصالة .. أوثقوا أيديهما ، ووضعوا كيسين أسودين على رأسيهما ، واقتادوهما إلى الخارج ، وأجلسوهما على ( نجيل ) الحديقة ..
جنود يركضون .. أصوات عالية .. صراخ خدم .. أصوات كسر باب .. ثم صرخة ثاقبة عرف بشار أنها صرخة جاكلين ، وعلى الرغم من آلامه / من الكيس الموضوع على رأسه / من يديه المقيدتين إلى الخلف / شعر بالراحة ..
بعد قليل كان ثمة من ينهضه ويدفعه .. سمع صوتا أجش يطلب منه الصعود إلى السيارة .. وضع قدمه على مسند ففقد توازنه .. تراجع إلى الوراء ليفاجأ بضربة قاسية لئيمة بعقب بندقية تأتيه من الخلف ، فتكسر ثلاثة من أضلاعه ..

في اللحظة التي كسرت فيها أضلاع بشار ، كانت ثمة سيارة سوداء بلا لوحات تسجيل تسير في ضاحية المنصور ، يقودها عباس الحرية وإلى جانبه جلس جبار الأسود ، وعلى المقعد الخلفي جلست أمل ..
أصبحت السيارة قريبة من البيت الذي تمت أمام بابه عملية اختطافها ، فصاحت :
- هذا بيتنا أريد النزول ..
قال لها عباس :
- إن أهلك ينتظرون عند نهاية الشارع .. سنصل بعد دقيقة ..
تجاوزت السيارة البيت عندما صاح جبار :
- انتبه الطريق مغلقة ..
قال عباس :
- اللعنة إنهم في دارة الخاتون ، لنعد على الفور ..
حاول أن يستدير بسرعة .. أطلقت سيارة أميركية النار لإيقافه ، لكن عباسا ضرب رصيف الشارع ، ولم يلتزم بأمر التوقف ..
أصبحت السيارة أمام بيت أمل ثانية .. رعب اللحظة والرغبة في الخلاص منحا أملا طاقة خاصة جعلتها تفتح الباب وترمي بنفسها إلى الشارع على بعد خطوات من باب بيتهم ..
كسرت ذراعها لحظة اصطدامها بإسفلت الشارع ، فصرخت بصوت سمعه الحارس أبو ستار وزوجته ، فانطلقا لاستطلاع مصدر الصرخة في حين كان رصاص الأميركيين ينطلق باتجاه السيارة .. استقرت رصاصة في ساق أمل الأيمن ، فكسرت العظم بينما استطاعت سيارة عباس وجبار أن تنجو وتبتعد ..
كسران ..
الأول في الساعد الأيمن أحدثته عملية السقوط من السيارة ..
والثاني في الساق الأيمن أحدثته رصاصة أميركية ..
كسران يستعصيان على فهم أمل وينالان من البراءة ، ومن الحياة نفسها ..كسران أعفت أمل نفسها من تحمل آلامهما فسقطت في غيبوبة في مكان الاختطاف عينه ..
فكان جسدها المدمّى بين ذراعي أبي ستار نداء احتجاج على القسوة والظلم ..

* * *

هل ثمة قوة مبصرة وأخرى عمياء ؟
شرط القوة العمى

ويخطئ من يظن أن ثمة قوة خيرة تنقاد إلى المبادئ والقيم ..
القوة الساكنة شيء
والقوة المتحركة أو المنطلقة شيء آخر تماما ..
فلا وجود لدبابة تقذف الحلوى ..
كل دبابات العالم وطائراته إذا ما انطلقت فإنها لا تستهدف سوى الموت ، أما محاولات التجميل والبحث عن الذرائع فإنها مطعونة بالجهل إذا ما افترضنا حسن النية ..
قد يقاتل الإنسان دفاعا عن شرف أو كرامة أو وطن أو قضية ، لكن رصاص هذا الإنسان أعمى أيضا ، فالطلقة لا تجيد التفكير ، إنها تجيد الاختراق لا غير ..
فإذا ما تمت الموافقة على اعتبار الدفاع عن القيم السابقة ذا مشروعية يثلمها عمى الرصاص ، فكيف يمكن تصنيف رصاص السراق ورجال العصابات والعدوانيين والمحتلين ؟
إنه أعمى ينطلق من قاعدة عمياء ..
وتكرار العمى يؤكد ولا ينقض ..
طريقة واحدة يمكن أن تخفف درجة العمى أو تلغيها ، هي أن تتوافر إمكانية صنع رصاصة تميز بين جسد الطفل والمرأة .. جسد البريء والمذنب.. الشريف والمحتال .. المناضل والدجال ..
ولأن المحاكم تفشل أحيانا في إصدار أحكامها برغم كل ما تمتلك من وسائل التدقيق والزمن المطلوب ، فإن من المستحيل الوصول يوما إلى طلقة حكيمة تجيد التفكير ، وتنجح في إطلاق الأحكام وتسدد في الاتجاه الصحيح ..

كان الألم يزيد من وتائر التفكير والتأمل ويدفع بشارا إلى حافة حادة يتساوى عندها الجنون بالعبقرية ..
كيس يلف الرأس
أغلال في اليدين
أضلاع مكسورة
سيارة تهتز وتتأرجح وهي في طريقها إلى المجهول
تبتعد العائلة .. يبتعد وجه أمل
تقترب الفجيعة
كل ذلك من شروط القوة العمياء ، والرصاص الأعمى ..

* * *

وجد بشار نفسه في قصر لا يمكن أن يخطئ في معرفته ، إنه قصر السلام بعد أن أعيد بناؤه واحتلت تماثيل الرئيس رأس أعمدته الشاهقة..

كان في القصر ، ولكن في غرفة صغيرة تحيطها الأسلاك الشائكة تقع أسفل برج من أبراج الحراسة ، يشاركه في الغرفة أحد خدم الخاتون ، واسمه عبود ..

كان غطاء الرأس مرفوعا ، والقيود مرفوعة أيضا عن اليدين ، فأخذ يجيل النظر عبر الفتحات الواسعة للغرفة .. تقدمت مجندة شقراء باتجاهه, وأمرته بغضب شديد أن يبتعد عن الفتحات ، ويواجه الحائط وهو جالس على ركبتيه .. امتثل للأمر وهو يفكر بمفارقة أن تكون فتاة جميلة بمثل هذه القسوة والتعنت ..

بعد أقل من ساعة جاءت المجندة الشقراء نفسها لتقول أن بإمكانهما النهوض ، ورمت نحوهما بقنينتين من الماء .. تناولها خادم الخاتون عبود ، وهو يقول بصوت كأنه يعتذر عن شيء ما : إن الحياة علمته أن يتعامل مع المفاجآت دون ردود أفعال تثير الآخر ، وهو يأسف لوضع الأستاذ ، ويرجو أن تكون محنة مؤقتة وتزول ..

فكر بشار بأن منظره أثار شفقة عبود ، فبادره بنصيحة قصد منها حمايته من نفسه أو من ردود أفعال توقع حدوثها .. ابتسم بمرارة ، واستلقى على أرضية الغرفة ، وهو يشعر بألم شديد في صدره ..

صباح اليوم التالي . صاح بهما أحد الجنود أن يخرجا ويصعدا إلى سيارة حمل عسكرية .. قبل الصعود وضعوا الأغلال في أيديهما ، وأجلسوهما على مقاعد خشبية في حوض السيارة ..

كان ثمة خمسة معتقلين آخرين .. تحركت السيارة تحت حماية وحراسة سيارتين أميركيتين اخترقتا المدينة باتجاه مديرية الاستخبارات العسكرية في منطقة الكاظمية ..

حظي الركاب السبعة باستقبال خاص من قبل مجموعة عسكريين أنزلوهم وهم يوجهون إليهم لكمات ورفسات وشتائم قذرة ..

قادتهم حفلة الضرب إلى قاعة صغيرة قذرة مظلمة ..

أدخلوهم ، وأغلقوا الباب .. كان الجو خانقا، والألم يعصف ببشار الذي طلب من عبود ان يجلسه على الأرض ، ويمسك يديه كي يستلقي ويضع رأسه على الحذاء ..

كانت أضلاعه المكسـورة تعذبه ، وتطوق جسمه بحزام يلتهب ألما ..

حرارة خانقة ، وهواء فاسد ، وقذارة ، وألم ، هذا ما كان يشعر به ويحسه بعمق ..

فتح الباب ، فظهر جندي رمى بقنانٍ من ماء ملوث ، وأكياس باتجاه المعتقلين ، وأغلق الباب ..

تحسس الرجال الأكياس دون أن يفتحوها ، ثم وكأنهم اتفقوا على تصرف موحد وضعوها تحت رؤوسهن كوسائد ..

اكتشف بشار أن ثمة ضوءا يأتي من فتحة تقع أسفل السقف من الجهة الشمالية ،

فعرف أن صباحا جديدا قد هل .. فتح الكيس الورقي ، وأخبر زملاءه في القاعة بأن الكيس يحوي طعاما ، وعلى الرغم من إعلانه لم يفتحوا الأكياس وكأنهم متضامنون معه على الجوع ..

شعر بحزن وألم شديدين ، فأغمض عينيه ، ليسمع صوت عبود يقول إنهم ينادونه ..

طلب مساعدته على النهوض .. توجه إلى الباب .. اقتاده جندي إلى غرفة صغيرة ليجد عسكرية أميركية سوداء تجلس على كرسي وأمامها منضدة ؛ تطلب منه الجلوس .. كانت الغرفة فارغة من الأثاث ، فأخبرها بشار بأنه لا يستطيع الجلوس لأن أضلاعه مكسورة بفعل الضربة التي تلقاها من جندي أميركي ..

استنكرت قوله ، فقال إن باستطاعتها التأكد عبر الفحص .. صمتت قليلا ، وطلبت كرسيا ، فجاء أحد الجنود بوعاء معدني يستخدم لحفظ الوقود ، فجلس عليه متألما ..

سألته الأميركية إن كان بحاجة إلى وجود مترجم ، فأخبرها أنه يجيد الإنكليزية ، وبدأ بالإجابة على أسئلة عدها بلهاء لأنها ليست أكثر من تحقيق ابتدائي يتضمن معلومات عن الهوية والعائلة وظروف الاعتقال ..

أخبرها بحاجته إلى المعالجة ، فوعدت بإرسال طبيب ..

في الطريق إلى القاعة سمع أصوات صراخ من قاعة مجاورة ، فأدرك أنهم يعذبون معتقلا ، وفكر أن عليه أن يستعد لممارسة مماثلة ، واستذكر مع نفسه كذب الدعايات التي تنزه أية قوة في العالم من ممارسة التعذيب والاعتداء على حرية الإنسان وحقوقه ..

طيلة اليوم لم يسمحوا لأحد بالخروج من القاعة برغم إلحاح بعضهم وتوسلهم بالحاجة للذهاب إلى الحمام .. كان الكلام جافا قاسيا : اقضوا حاجتكم حيث أنتم ..

مضى النهار بطيئا ، وجاء الليل كئيبا موحشا .. فتح الباب ، وطلب منهم التوجه إلى سيارة تنتظر في الخارج ..

قيدوهم ، وأمروهم بالصعود .. كانت محنة حقيقية أن يستطيع رجل مقيد اليدين إلى الخلف الصعود إلى سيارة بارتفاع متر ونصف ..

استعان الجنود الأميركيون بالضرب والشتائم ، وهم يرمونهم إلى الداخل كبضاعة قذرة ..

تحركت السيارة ، وبطريقة متعمدة أخذت تصطاد الحفر والمطبات لتدمير ما تبقى من قدرة على الصبر والتحمل لدى المعتقلين ..

رحلة مملوءة بالألم والآهات امتدت من بناية الاستخبارات العسكرية ولغاية مطار بغداد ..

توقفت السيارة أخيرا .. كان ثمة الكثير من السيارات ، ولسوء حظ المعتقلين ، أمرت

السيارة بالعودة لأنها لا تحمل الأوراق الخاصة براكبيها..
عذاب مكرر ، ورحلة ألم مضاعف قادت السجناء من المطار إلى موقع احتجازهم الأول ، ليتجمعوا في نفس القاعة القذرة وهم نصف أموات ..
حل يوم آخر ، ولم يذق بشار أي طعام ، كانت وجبات الألم تغذيه بالعذاب، وتحوله إلى ذاكرة وأحاسيس تنكر حاجات الجسد ، وتفتح أمامه صفحة سوداء للسلوك الوحشي لبني البشر ..
مرة أخرى تتكرر رحلة الذهاب إلى المطار بروح مستسلمة ، وحواس فقدت الكثير من وظائفها وقدرتها على تمييز ما يحدث ..
هناك وضعوا قيودا من نوع آخر في معاصمهم ، إنها أرقامهم المكلفة بإزاحة الأسماء وتحويل الإنسان إلى محض رقم لا غير ، مع صور صغيرة جدا تحملها هذه القيود لهم ، بعدها وزعوا حسب الحروف على خيم محاطة بالأسلاك الشائكة ..
دخل بشار إلى إحدى الخيم ، فاستقبله شباب ورجال قرأ في أصواتهم وحركاتهم إنهم بشر حقيقيون كانوا معتقلين مثله ..
مع شعوره بموجة التعاطف فقد بشار أية إمكانية في الوقوف أو الرؤية ، فانهار دفعة واحدة وسط صراخ زملائه الجدد وهم يطلبون مساعدة طبية ..
ثلاثة أيام لم يتناول فيها طعاما ..
ثلاثة أيام طعنته في الصميم ..
حملوه إلى خيمة طبية .. قاس الطبيب الأميركي ضغطه .. فوجئ بانخفاضه الخطير ، فانتفض ليغرز في ذراعيه حقنا متصلة بأكياس بلاستيكية من المغذي ؛ فتحت صماماتها عن آخرها لإنقاذ حياة بشار من موت وشيك ..
بعد ساعات عرف الطبيب أن مريضه لم يأكل شيئا ، فأخذ يطعمه بيديه ، وأخبره أنه يحتاج إلى تسع قنان من الماء يوميا ..
قال بشار إنهم لا يمنحون السجناء سوى قنينة واحدة ..
قال الطبيب إن الأمر مختلف بالنسبة لك .. وسيعمل على توفير ما يحتاجه من ماء وخدمة طبية ، وحين سئل بشار عن الآثار الموجودة على صدره أخبر الطبيب بأن جنديا ضربه فكسرها .. تألم الطبيب وقال أنه سيعطيه حبة لتخفيف الألم ، أما المعالجة فهي متروكة للزمن والراحة ..
ابتسم بشار وطلب إعادته إلى خيمته ..
أعد زملاؤه مكانا يرتاح فيه .. غسلوا يديه ووجهه بعد ثلاثة أيام من قذارة متواصلة ، وتركوه لينام ..
حرارة عالية وغبار ..
خيمة لا تتسع لنصف العدد الذي وضعوه فيها ..
برغم ذلك شعر بشار بالراحة ..

كانت ثمة حنفية ماء ، وحمام ، وبشر متعاطفون ..
بعد يومين سمع من ينادي ، ويعلن الرقم المطلوب ، وهو نفس الرقم الذي يحمله في معصمه ( اثنا عشر ألفا وأربعمائة وخمسة وثلاثون ) ..
وجد ضابطا أميركيا في انتظاره .. طلب منه مرافقته .. سار نحو مائتي خطوة ليصل إلى رواق فتح الضابط باب الغرفة الأولى فيه .. كانت غرفة صغيرة .. مكتب خشبي .. أربعة كراسي .. سرير .. ومكيف هواء يعمل ..
طلب الضابط من بشار أن ينتظر .. أحس برعشة انتعاش بسبب الجو المكيف .. حاول أن يفكر بشيء محدد ، لكنه سرعان ما شعر بعدم القدرة على التركيز ، فمنح جسمه حرية التمتع بجو الغرفة ..
بعد قليل دخل ضابط آخر ، ودخلت المجندة الأميركية الشقراء / التي شاهدها في قصر السلام ، وتذكر أمرها بالجلوس على الأرض ومواجهة الحائط / مع مترجم أميركي من أصل عراقي ، وأخيرا دخل الضابط الذي اقتاده من الخيمة لهذا المكان ..
سألت الأميركية الشقراء إن كان يتذكرها .. أنكر معرفته بها ، وأكد بأنه لا يتذكر معرفة سابقة .. سرها الجواب .. قرأ ذلك في عينيها وملامح وجهها ..
هل كانت تعتذر عن إساءة سابقة ؟
هل تخفي دافعا أو معلومات ؟
فشل في التيقن من شيء ..
قال الضابط بأنه سيقرأ له معلومات مدونة في أوراقهم ، وإذا ما شعر بوجود خطأ عليه أن يعترض ويصحح ..
تلا معلومات عامة عنه .. هويته .. عائلته .. عمله السابق .. اتجاهه السياسي .. معارضته للنظام السابق ..إقامته في باريس .. معلومات تعجب بشار كثيرا من قدرتهم على جمعها .. قال :
- إنها معلومات صحيحة ..
قال الضابط :
- المحير في الأمر ؛ رجل في مثل ثقافتك وتجربتك وماضيك السياسي ومواقفك ، كيف ينجر للعمل مع عصابات وإرهابيين يستهدفون الجنود الأميركيين ويخطفونهم .. كيف حدث ذلك ؟!
قال بشار :
- حسنا .. هل تصدق أنت هذه التهم ؟
- إني أسأل ..
- كل ما يتعلق بمعلوماتكم عني صحيح ، لكن التهم الموجهة ضدي عارية عن الصحة تماما ، فليس مثلي من يقوم بمثل هذه الأعمال بل أنا محض ضحية لها ..
وفاض بشار وهو يشرح للمحققين ظروف عودته إلى العراق وكارثة اختطاف ابنته

، وما فعله ، واتخذه من إجراءات للوصول إلى خيط يقوده إليها ، حتى وصل أخيرا للخاتون انتصار طلبا لمساعدتها ، وإنه في لحظة مهاجمة الدارة والقبض عليه كان ينتظر ابنته بناء على وعد من انتصار ، وأكد أنه ضحية الاختطاف وليس مختطفا ..
استوضح الضابط ظروف معرفته بانتصار ومعلوماته عنها وعن معارفها واتصالاتها ودورها السياسي ..
أكد بشار بأنه لا يعرف شيئا عن ذلك ، فالحاجة قادته إليها ، ويمكن لهم التأكد من خلال المستر ديك كاستنر الذي لجأ إليه ووعد بمساعدته ..
عندما سمعت الشقراء اسم كاستنر ، سألت :
ـ كيف تعرفت عليه ؟
تحدث عن ظروف طلبه اللجوء السياسي ، وتعرفه على الأميركيين جون ورونالد في باريس ، وإنهما من زوداه باسم ورقم كاستنر ..
ـ كم مرة التقيت به ؟
ـ إنها مرة واحدة ، ولم أتحدث بشيء خارج الحاجة إلى المساعدة في موضوع اختطاف ابنتي ، ويمكن أن تسأليه ..
عاد الضابط للاستفسار عن المجندة المختطفة ، والأحاديث التي دارت مع انتصار حولها ..
استمع بانتباه إلى كل كلمة من كلمات بشار .. بعدها عاد للسؤال عن تقويمه في ضوء ما لمسه من انتصار لحادثة اختطاف المجندة ..
أعاد بشار رواية كل ما يعرف محاولا استذكار كلمات انتصار والحديث الذي ترجمه بينها وبين جاكلين .سألت الشقراء :
ـ قالت جاكلين بأن ثمة علاقة خاصة بينك وبين انتصار ، حدثنا عنها..
ـ أظن أنني لم أتبادل حديثا خاصا مع انتصار بحضور جاكلين .. كل ما فعلته هو ترجمة حديثهما ، وإذا ما افترضنا أنني تحدثت ، فمن المؤكد أن يكون الحديث بالعربية لأن انتصار لا تجيد غيرها ، فكيف عرفت جاكلين مضمون الحديث ، وكيف قومته ؟!
قال الضابط :
ـ أنت ماهر وذكي ..
قالت الشقراء :
ـ هل تعرف أن ابنتك كانت محجوزة في غرفة مجاورة لغرفة جاكلين، وأنهم جرحوها وحاولوا قتلها ، في الوقت الذي كنت تتعاون معهم ؟!
كانت ضربة البندقية التي كسرت أضلاعه مؤلمة للغاية ، ولكنها لم تكن تجعله ينتفض كما فعلت كلمات الشقراء .. للحظة شعر أن الأرض تميد تحته ، وأن السقف قد أطبق على رأسه ، فصاح :

ـ أنت كاذبة وحقيرة .. لا أصدق حرفا مما تقولين ..
بعدها لم يشعر بشيء .. كانت الغرفة خالية إلا من الأميركي ذي الأصل العراقي الذي وضع راحته على رأس بشار ، وقال :
ـ إنني أهنئك ، فقد كانت تحفر لك ، ونجحت في تدمير خطتها ..
لم يفهم شيئا من كلمات الرجل ، لكن النبرة التي قيلت بها أشعرته بتعاطف حقيقي .. غادر المترجم ، فبقي وحيدا في الغرفة ..
جاء الضابط الذي اقتاده من الخيمة ، وقال :
ـ انتهى التحقيق ، فلنعد ..
وناوله قنينة ماء بارد .. احتضنها كمن يحتضن هدية ثمينة ..

* * *

# الفصل التاسع

بعد اقتحام دارة الخاتون في المنصور شعر أفراد العصابة بخوف حقيقي من أن يقود ذلك إلى اعتراف انتصار وكشف مواقعهم وإلقاء القبض عليهم ..
ولأن أفراد العصابة نشأوا وترعرعوا على حاسة استشعار الخطر ، فإنهم اتفقوا على مغادرة بيت انتصار القديم ، وتقليل لقاءاتهم المشتركة ، ومراقبة تحركات القوات الأميركية وبخاصة في منطقتي المنصور والحيدرخانة ، وبث عيون الشباب الذين يعملون معهم لإبلاغهم بآخر المستجدات يوما بعد آخر ..
بمرور الوقت لم يداهم بيت انتصار القديم ، ولم يلحظ الرجال أن ثمة تحركات مريبة تحدث ، فبادر عباس الحربة بالقول إن من حق الخاتون أن تحظى بمساندتهم ودعمهم ، فهي لم تعترف بشيء عنهم ، ولو كانت فعلت لكان الأمر على غير ما هو عليه الآن ..
تساءل الرجال عن كيفية مساعدتها ، والطريقة التي تكفل هذه المساعدة ..فكروا كثيرا ، فاقترح جبار الأسود فكرة حاول أن يقدم لها .. قائلا :
ـ سمعت قولا يردده بعض المتعلمين : لا يفل الحديد إلا الحديد ..

سأل عزيز الأرمني :
ـ وماذا يعني ذلك أيها الفاهم المتعلم ؟
ـ إنه يعني إن الاختطاف لا يفل إلا بالاختطاف .. ودعني أشرح لكم : إننا نعتبر الأميركيين مختطفين لصديقتنا انتصار ، وبهدف إنهاء هذه الحالة نختطف جنودهم و نقايضهم بها ..
ضحك أسمر ياقو ، وقال :
ـ يبدو أن صديقنا جبار معجب بحكاية الاختطاف منذ اليوم الذي اصطدم فيه بالأميركية ..
عقب جاسم الريس :
ـ إنني أجد أن ما يقترحه يفي بالغرض ..
سأل أسمر :
ـ وكيف يتم الأمر ؟
ـ نفتش ونبحث لإيجاد طريقة وفرصة .. وبعد ذلك نقرر .
لاحظ أفراد العصابة من خلال جولاتهم وغزواتهم أن الأميركيين يتجولون على شكل مجموعات صغيرة في منطقة الكرادة لشراء أجهزة كهربائية ، وبخاصة أجهزة التبريد ، ويتجولون أيضا في منطقة الصناعة ، ويشترون أجهزة حاسوب حديثة ..
راقبوا سياراتهم ، وقوتهم ، وطريقة إنتشارهم وعودتهم ، ومستوى يقظتهم .. وكانوا مساء كل يوم يناقشون ملاحظاتهم ، ويضعون الخطط لاختطاف مجموعة منهم ..
المشكلة التي واجهتهم هي حاجتهم إلى مقر يقودون غنيمتهم إليه .. مقر يكون قريبا

، ويتمتع بميزات الانفتاح على طرق وأزقة قد يحتاجونها في حالة المواجهة أو الهرب ..
المشكلة الثانية هي حاجتهم إلى مترجم لتحقيق الهدف من الاختطاف ..
ناقشوا المشكلتين ، وتوصلوا إلى آراء وقناعات لا تلبث أن تتغير ، حتى استقر الأمر أخيرا على الاستفادة من البيوت القديمة التي يستخدمها التجار كمخازن لبضاعتهم ، وعادة يحرسها رجل واحد كبير في السن ٠ أما قضية المترجم فقد استقر رأيهم على الاستفادة من الطالب الذي يدرس اللغات الذي حاولوا يوما تأديبه لأنه ساعد الأميركيين ، وتكفل أسمر ياقو بتدريب الطالب على الصمت حتى وإن أدى ذلك إلى الموت ..
خطط العصابات بسيطة مرنة قابلة للتغيير ، ولا تشكو من ثقل طريقة اتخاذ القرارات لدى المنظمات الكبيرة أو الدول أو الشركات الضخمة .. بسيطة .. مرنة .. قابلة للتغيير في كل لحظة وذلك بالضبط مكمن قوتها ..
في ظهيرة حارة دخل أميركيان يرافقهم مترجم عراقي متجرا لبيع الأجهزة الكهربائية يقع في ( الكرادة خارج ) وعلى ركن زقاق يتفرع من الشارع الرئيس المزدحم ..
كانت سيارة نقل ركاب صغيرة تتسع لعشرة أشخاص تركن في بداية الزقاق .. جلس خلف مقودها أسمر ياقو ، وهو يراقب تحركات مجموعته ..
دخل عباس الحرية وجبار الأسود إلى المتجر ، وشهرا أسلحتهما في وجه الأميركيين ومترجمهما ، بينما وقف عزيز الأرمني على باب المتجر مستعدا لأي طارئ .. كان جاسم الريس واقفا على الرصيف يراقب اتجاهات السير ، ويبحث عن وجود محتمل لأية قوة أميركية ..
بوغت الجميع ، فرفعوا أيديهم التي سرعان ما قيدها عباس الحرية بعد أن جردهم من أسلحتهم ، واقتادهم إلى السيارة التي تحركت على مبعدة مترين من الباب الجانبي للمتجر .. نفذت العملية بهدوء وسرعة ودون مفاجآت .. أما صاحب المتجر فقد اكتفى جبار الأسود بإخباره أن حياته وثروته مهددة بالفناء إن نطق بحرف واحد ..
تحركت السيارة بعد انسحاب المجموعة إليها ، واختفت في الأزقة المتفرعة لتتوقف في مرآب بيت قديم ..
اقتادوا الغنيمة إلى غرفة داخلية ، وطلبوا من الحارس إغلاق البوابة الرئيسة ، وهو في دهشة من القادمين .. كانوا قد اتفقوا معه على حفظ حاجيات لقاء مبلغ مغر .. وافق على ذلك دون أن يدور في خلده أن الحاجيات المقصودة بشر مختطفون ..
العصابة متيقنة بأن الحارس لا يشكل تهديدا لها فهو في قبضتهم ، ويستطيعون معالجة المواقف الطارئة بقوة السلاح وهم لا يحتاجون هذا الملجأ لأكثر من ساعات بانتظار حلول الظلام ..
في الليل استبدلوا السيارة ، وقبل الانطلاق من بيت الكرادة بدأوا بتنفيذ الجزء الأول من خطتهم ، وهو الجزء الذي كانوا قرروا تنفيذه في بيت ساحة السباع ، لكن وجود

المترجم سهل المهمة وألغى مساهمة طالب اللغات في الخطة ..
طلب عباس الحربة من المترجم أن ينقل كلماته وأوامره بدقة ، وإلا سيفقد أهله الأمل في رؤيته مجددا .. امتثل للأمر ، فقال عباس :
ـ على الأميركيين أن يعرفوا بأننا اختطفناهم لأن القوات الأميركية اختطفت امرأة صالحة تعطف على الجميع وتسكن منطقة المنصور .. ونحب أن نؤكد إن هذه المرأة الصالحة واسمها انتصار خاتون احتضنت مجندة أميركية بهدف إطلاق سراحها ، ولا علاقة لها بالخطف أو الخاطفين .. وتقديرا منا لخدمات الخير التي تقوم بها فقد اختطفناكم لهدف واحد لا غير هو مقايضتكم بها ، ونحن لسنا سياسيين ولا ننتمي إلى المقاومة ولا أهداف لدينا ضد الأميركيين .. وفي حالة عدم إطلاق سراحها خلال أسبوع واحد فإن أحد الأميركيين ، وأنت أيها المترجم ستقتلان .. هل الرسالة واضحة ؟
ترجم الكلمات ، وهو يرتعش .. أصغى الأميركيان للرسالة .. قال أحدهما :
ـ من سينقل الرسالة ؟
ـ أحدكما ..
ـ حسنا ، هل من شيء مكتوب ؟
انتبه عباس لشرعية الطلب ، فأمر المترجم بكتابة رسالته مع التشديد على اسم الخاتون وعنوانها وموعد اختطافها والعقاب الذي ينتظر الأميركي ومترجمه في حالة عدم التعاون ..بعد الانتهاء من الكتابة ، سأل عباس :
ـ من تختاران للقيام بالمهمة ؟
نظر الأميركيان إلى بعضهما ، ولم يتكلما .. ضحك عباس وقال لزملائه : إن الاختيار صعب حتى عند الأميركيين ، ثم نظر إلى أحدهما ، وقال :
ـ أنت ، ستحمل الرسالة .. وتذكر إن حياة زميلك والمترجم في يدك ، وإنها ستنتهي خلال أسبوع واحد إذا لم تطلقوا سراح الخاتون ، وسنتابع ذلك بدقة ..
ترجمت الكلمات ، والأميركي يهز رأسه موافقا على كل كلمة ..
توزعت المجموعة مع أسراها على سيارتين انطلقتا مسرعتين ..
في نقطة قريبة من ساحة الطيران ، خففت إحدى السيارتين سرعتها ، وقذفت أحد الأميركيين إلى الشارع ، ثم انطلقت ثانية باتجاه بيت ساحة السباع ..
في الأيام التي تلت الحادث .. جن جنون الأميركيين للوصول إلى العصابة .. اعتقلوا صاحب المتجر ، وتوصلوا إلى البيت القديم الذي يستخدم كمخزن ، واعتقلوا الحارس ، واستمعوا عشرات المرات إلى أقوال الأميركي /الذي أطلقت العصابة سراحه بعد تحميله الرسالة / وأقوال صاحب المتجر والحارس دون أن يقود ذلك إلى موقع العصابة أو معرفة أفرادها ..
أعادوا التحقيق مع انتصار ، فأصرت على أقوالها الأولى بأنها امرأة تفعل الخير ، وقد طلب منها رعاية مجندة أميركية بهدف إطلاق سراحها وعودتها سالمة ، وطلبت

مواجهة المجندة للتأكيد على رعايتها ، وأنكرت أية معرفة بالعصابات أو أفرادها ، وأخبرت المحققين أنها تساعد الجميع ولا تسأل عن أعمالهم ونشاطاتهم ، وإذا كانت أعمالها محل تقدير دفعت بآخرين إلى سلوك خاطئ بهدف إطلاق سراحها ، فإنها غير مسؤولة ، وهي تقترح إطلاق سراحها لأن من يعرض نفسه إلى مخاطر حقيقية من أجل خطف أميركيين لن يتردد في قتلهم إذا ما فشلت خطته ، وهي تأسف حقيقة لما حصل من الأميركيين ومن الخاطفين أيضا ..

درست لجان خاصة نتائج التحقيقات ، وتوقفت هذه اللجان عند الطريقة التي سوغت بها انتصار مقترح إطلاق سراحها ، ووجدوها متفقة مع المنطق ، فمن يعرض نفسه إلى أخطار لا يتنازل عن هدفه ..

وعلى الرغم من هشاشة منطق انتصار في إنكار معرفتها بأفراد العصابة ، فإنهم وجدوا أنفسهم في مأزق حقيقي تتوقف عليه حياة عسكري أميركي ومترجم متعاون معهم ، فاتخذوا قرار الموافقة على إطلاق سراح انتصار ، ووضعها تحت مراقبة مشددة للتأكد من التزام الطرف الآخر بالاتفاق ..

جاء الخبر

الخاتون في بيتها

فقررت العصابة إطلاق سراح أسيريها بعد منتصف الليل ..

في اليوم التالي ، أقامت الخاتون وليمة كبيرة للفقراء والمحتاجين ، ووقفت على الشرفة المطلة على الحديقة تراقب الناس وهم يأكلون ..و يملأون قدورا من الألمنيوم بالطعام ..

لاحظت وجود رجل كهل يقف وأمامه قدر فارغ .. طلبت من أحد الخدم مساعدة الرجل ..

ملأ القدر بالطعام ، وأشار للرجل أن باستطاعته أن يشارك الآخرين الأكل، لكنه ظل واقفا ينظر باتجاه الخاتون ، وكأنه يفكر في أمر ويتردد في طلبه أو فعله ..

نادته ، وسألته إن كان يطلب حاجة أو مساعدة .. أخبرها بحزن بأنه حارس في بيت الأستاذ بشار ، وقد عرف بأنه اعتقل في بيتها بينما كان في انتظار المسكينة ابنته ، وإنه يود معرفة أية أخبار عنه ..

طلبت الخاتون كرسيا ، وأجلست أبا ستار عليه ، وأخبرته بأنها للأسف الشديد لا تعرف شيئا عنه ، وهي تتمنى أن يكون في بيته ، وكمن يتذكر شيئا مهما ، قالت :

ـ اللعنة ، كان من المفروض أن يجلبوا البنت يوم إلقاء القبض عليه..

أخبرها بأن أملا عادت مكسورة اليد والرجل ..

صاحت انتصار :

ـ كيف حدث هذا ؟

حكى أبو ستار كيف رمت أمل نفسها من السيارة ، فانكسر ساعدها ، ثم كسرت ساقها

برصاصة أطلقها الأميركيون باتجاه السيارة الهاربة ، فاستقرت في ساقها ..
ـ وكيف حالها ؟
ـ أظن أنها خرجت من المستشفى ، وهي في بيت جدها ..
ـ حسنا أيها الرجل الطيب أتمنى أن تأتيني بأخبار عن بشار ، وإن تعذر ذلك ، فإني أرغب في لقاء أخيه ..
انحنى أبو ستار شاكرا ، وغادر دارة الخاتون ..
لم يمض أكثر من ساعة حتى كان محمد يطلب الإذن بمقابلة الخاتون ..
أيام طويلة قضاها محمد في محاولة لمعرفة مصير أخيه وسبب اعتقاله ، لم يوفر منفذا أو طريقة دون طرقها للوصول إلى خبر يريحه ويريح أهله..
بين قلقه ، وقلق الأهل ، وبين السهر على صحة أمل الراقدة في المستشفى كان محمد يذوي كل يوم وهو مطالب بالإجابة عن عشرات الأسئلة تلقيها نسرين وأمل والأهل عن بشار ..
عندما سمع صوت أبي ستار يخبره أن الخاتون عادت إلى دارتها ، وأنها تطلب اللقاء به ، طار على الفور ، وقلبه يخفق بانتظار خبر سعيد ..
كان وجهه يهتف بالسؤال حين التقاها ..
استقبلته بهدوء ، وقالت إنها تشعر بأسف عميق لما حل بالأستاذ بشار وابنته ، وهي الآن لا تمتلك أية معلومات عنه ، لكنها تأمل ألا يطول حجزه ، فلا مبرر لذلك ، ولم يرتكب إثما أو ذنبا يسوغ اعتقاله ، وذكرت أنها كانت تنتظر الاحتفال بعودة أمل ، وقد سمعت ما أدمى قلبها عنها ، ورجته أن يحدثها عن صحتها ..
أخبرها أن وضعها مستقر ، والزمن كفيل بمعالجة كسورها ، أما وضعها النفسي فيدعو للرثاء ، وهو حائر في كيفية مساعدتها لأن الأمر يتعلق بعودة أبيها ..
وقال إنه كان يأمل بالحصول على أخبار أو معرفة سبب اعتقاله ..
حدثته عن المجندة الأميركية ، وحدثته عن الخدمة التي قام بها ، وكيف حاولا معا العمل من أجل عودتها دون أذى ، لكن الأميركيين لا يفهمون لغة العقل ..
سألها محمد عن كيفية خروجها ، والمجندة كانت في بيتها ، بينما يبقى بشار معتقلا وهو لا يعرف عن الموضوع شيئا ..
قالت بمكر :
ـ هل تلومني لأنهم أطلقوا سراحي ؟
ـ أبدا ، إنني أعتذر عن سوء الفهم ، ولكنني أحاول استيعاب الأمر ..
ـ أتمنى أن أستطيع المساعدة .. دلني على طريق أسلكها ولن أتردد ..
شكرها محمد ، فقالت :
ـ كيف أستطيع التخفيف عن أمل وأمها ؟
شكرها ثانية ، وقال أن عواطفها كافية ..

سألت :

ـ هل تمانع لو أردت زيارتكم ؟

ـ بل أرحب بك في الوقت الذي تشائين ..

عاد محمد إلى البيت وهو يشعر بخيبة أمل قوامها أنه مكره على زرع الخيبة هذه في نفوس أهله وهو يستمع إلى أسئلة لا يمتلك أجوبتها ..

قبل أسبوع كان محمد يجيب على نداء هاتفي قادم من باريس ..

امرأة تسال بحرارة عن بشار وأخباره .. لم يعرف كيف يجيبها أو من تكون ، وعندما سألها إن كانت راغبة في الحديث مع نسرين ، قالت إن الأمر لا يستوجب ، ثم ختمت كلامها بالرجاء في إبلاغ بشار بأن إيزابيل اتصلت وهي تنتظر منه اتصالا ..

تردد كثيرا في إبلاغ نسرين ، ورأى أن يسأل خالدا ..

قال خالد :

ـ نعم .. إنها رسامة ، وهي صديقة بشار ، حسنا فعلت بعدم إخبار نسرين لأنها لا تعرفها .. هل قالت شيئا محددا ؟

ـ لا .. إنها تسأل عن أخبار وتتمنى أن يتصل بها ..

ـ هل تعرف بقضية اعتقاله ؟

ـ لا أظن ذلك ..

ـ إني أفكر أن أتصل بها وأخبرها بالأمر حل وصولي باريس ، فقد تكون مفيدة ..

ـ كيف ؟

ـ لها علاقاتها ، وهي أفضل من علاقاتنا ، فكل المسؤولين الذين التقيتهم يكررون الاعتذار : وهو أن الأميركيين لا يسمعونهم .. هل تتصور ؟

لا يحتاج محمد إلى تصور جديد ، فالمشي في المطر لا يوفر حماية من بلل مؤكد .. هذا ما كان يفكر فيه ..

*　　　*　　　*

# الفصل العاشر

لماذا تكرهني هذه الأميركية الشقراء منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها علي ؟ أذكر نظرتها ، وأذكر جفاف الصوت عندما يغلفه اللؤم ، وهي تطلب منا الجلوس على الركبتين والتحديق في الحائط ..

إنها تعرفني ، وإلا لماذا سألتني إن كنت أتذكرها ، وفرحت عندما أنكرت ذلك ؟

قد يكون التعاطف حالة إنسانية مسوغة ، أما الكره والإصرار عليه ، فيستوجب أسبابا ، وفي حالتها يكون البحث عن أسباب طلبا تعجيزيا لا يملك مفاتيحه أو الطريق إليه ..

نعم ، أبدت اهتماما باسم ديك كاستنر ، ولكن الاهتمام باسم لا يسوغ حالتها ..

أمل مجروحة ، وثمة محاولة للقتل ..

أي ضغط يا إلهي تسلطه هذه الشقراء على عقلي وقلبي ؟

هذا يعني أنهم وجدوها ، وهي حية ، كم أتمنى أن تكون أمل في البيت مع أمها وأهلي ..

دوار في الرأس

رؤية مضببة

ثم انهيار

عمل الطبيب بسرعة ودقة وهو يعالج حالة مكررة .. نقص في سوائل الجسم .. انخفاض في الضغط .. تغذية سيئة أو معدومة ..

بقي بشار تحت عناية مركزة حتى الثانية بعد منتصف الليل ، بعدها نقل إلى الخيمة في رعاية رفاق الأسر ..

في اليوم التالي كان رقمه ضمن قوائم المطلوب ترحيلها إلى مخيمات اعتقال أم قصر ..

قيدوا المعتقلين اثنين اثنين ..

وبدأت رحلة عذاب إلى أم قصر تنقل فيها بشار من سيارته إلى سيارات الرعاية الطبية عدة مرات ، ولما وصلت القافلة أم قصر كان بشار شبح إنسان ..

وزعوا على مخيمات ، وتعرفوا على حالات إنسانية تخجل أقسى القلوب ، وأكثر العقول تحجرا ..

وبدأت معاناة من نوع جديد ..

حرارة .. رطوبة لا تطاق .. عواصف تضرب الخيم وتحيل بعضها إلى نتف ممزقة ..

أضواء كاشفة تحيل الليل إلى سهام تجرح العينين ..

ذباب لم يره إنسان من قبل .. كل ذبابة بحجم عشرة أمثالها من الذباب العادي .. ذباب عنيد لا يخاف ولا يستجيب للطرد .. إنه يلتصق بالجسم ، فلا يمكن التعامل معه إلا بالتقاطه ذبابة إثر أخرى ..

أفاع وعقارب ..

ورمل يخترق العينين والجسم والأكل والتفكير والأحلام ..
في مثل هذه الأجواء بدأت النوبة القلبية الأولى التي أصيب بها بشار .. نقل إلى الخيمة الطبية ، ولما وجدوا أن حالته خطيرة نقل تحت حراسة مشددة إلى المستشفى الجيكي في البصرة ..
بذل الطبيب المختص جهودا كبيرة ليبقى بشار مستيقظا ..
حقن ووسائل وأجهزة ومعدات ..
وجلطة في القلب ..
بعد يومين من رعاية طبية حقيقية ، اعتذر الطبيب قائلا إنه لا يستطيع إبقاءه أكثر ، فعاد إلى مخيم الأسر ..
أعفي هناك من مهمات التعداد الصباحي ، وجلب الطعام الذي تكفل به أحد أصدقائه المعتقل مع أولاده في المخيم نفسه ..
في يوم شديد الحرارة .. شديد العواصف .. شديد الغضب .. أستدعي , فذهب باتجاه خيمة تبعد مئات الأمتار .. وصلها لاهثا متعبا ، وعندما دخلها شعر براحة فورية ناشئة من مكيف هواء يعمل ونظافة ..
جلس ضابط في الخمسينات من العمر وإلى جانبه مترجم .. سأل بشارا إن كان بحاجة إليه ، فنفى مشيرا إلى إجادته للغة .. أخبره الضابط أن عليه أن يجيب عن بضعة أسئلة دون أن ينقل نظراته عن عينيه أو يلتفت إلى أية جهة كانت .. استسلم للأمر ولم يعلم إن كان الطلب لعبة أو رغبة في استعراض مهارة أو خبرة نفسية .. سأل عن معلومات تعود إلى عشرين سنة مضت ، وسأله عن تقويمه للسياسة الأميركية في العراق ، وسأله عن فروق طائفية واتجاهات دينية ..
أجاب بشار بثقة وصدق ، وتحدث عن تصورات وعن اخفاقات السياسة الأميركية وأسبابها كما يراها ، وقدم مجموعة من الاقتراحات تقلل من الزوايا الحادة لتلك السياسات ..
في نهاية حديث طويل ، قال بشار :
ـ ولكنك لم تسألني عن الاتهامات الموجهة ضدي ؟
قال الضابط :
ـ أعرف أنها هشة ، وإنك برئ ..
ـ إذا كنت تعرف ذلك ، وتعرف حالتي الصحية ، لماذا لا تفعل شيئا ؟
ـ كل ما علي هو الكتابة ، وأنا أكتب ، ولكنهم لا يستجيبون ..
ـ من الذي لا يستجيب ؟
ـ تقديرا مني لك أقول إن ثمة لجنة تجتمع دوريا وهي المعنية بإطلاق سراح المعتقلين ..
قبل العودة حمله الضابط قنينة ماء ، وعلبة عصير فواكه ، وعلبة لحم معلب ..

مرت الأيام والأشهر ، وبشار في مخيم الأسر ينتظر الفرج ، والفرج لا يأتي .. أطلق سراح الكثيرين ، واستقبل المخيم الكثيرين ، وبقي بشار صامدا يعاني من الضعف والإهمال والمرض ..
تعرض إلى نوبة قلبية أخرى ، ونقل إلى المستشفى ليعود إلى حياة العذاب نفسها بلا بارقة أمل واحدة ..
في يوم ما ، استدعته مديرة المخيم ، وسألته عن التهم الموجهة ضده ، وبعد حديث شعر أنها متعاطفة معه ، سأل :
ـ أما من نهاية ؟
قالت بأسف :
ـ أرجو ألا تتصور أن الأميركيين سيئون ..
ـ اقترحي علي صفة أطلقها عليهم وأنت بمثل حالتي .. هل تعرفين ي سيدتي إن في مخيمات الاعتقال التي تديرينها عشرات بل مئات الأشخاص الأبرياء .. هل تصدقين أن مجموعة معتقلة هنا اعتقلت بسبب وقوفهم أمام مخبز لشراء الخبز .. وهل تعرفين أن صاحب المخبز بدأ يصيح بالناس ألا يقتربوا للشراء لأن من يشتري خبزا يعتقل ؟
ـ هل تصدق هذه القصص ؟
ـ عندما يتحدث المعتقلون مع بعضهم البعض فإنني أصدقهم ، وأصدق أن الأميركيين يعدّون كل ما لا يفهمونه موجها ضدهم ..
كررت المرأة أسفها ..
كانت صادقة ..
لكن الصدق وحده ، الصدق العاجز عن الوصول ليس سوى ثمرة محرمة ملعونة ..

* * *

وجه إيزابيل ينأى ، وتصبح محاولات استحضاره عبئا يفوق القدرة..
هل استطاعت الوصول إلى اللوحة ، كما كانت تأمل أو تتوقع ؟
لوحة لم يرها ..
هل أرادت منحه مساحة إضافية لا تحدها رؤية سابقة ؟
وإذا كان ذلك صحيحا ، ما الحكمة .. ما السر ؟
أهي نبوءة تحذيرية لفقدان ابنته الوحيدة أمل ؟
فقدت اللوحة ..

فقدت أمل ..
ألا يعد نفسه مفقودا ؟
للسؤال حكمة تقتلها الإجابة ..
إنه يشعر أن الموت أصبح أقرب إليه من أمل أو سؤال يفضي إلى إجابة أو بحث يفضي إلى لوحة ..
أيام مطفأة العيون
وليال تقتلها الأضواء الكاشفة
فكيف الخلاص ؟!

*　　*　　*

كان بشار يترنح ، وهو عائد من الحمام باتجاه خيمته ، حين أطبقت يد متعافية على يده .. نظر إلى صاحبها ، فتذكر أنه شاهد هذا الشاب مرارا عندما اعتقل مع أربعة شباب آخرين ومعهم مدفع هاون وبضعة قنابر ..
سمع أن الشباب اعتقلوا من قبل الشرطة ، وتم تسليمهم إلى القوات الأميركية ، وفي جميع التحقيقات التي أجريت معهم أصروا أنهم سمعوا أن القوات الأميركية تدفع مكافآت لمن يسلمها أسلحة ، وكانوا في طريقهم لتسليم المدفع عندما ألقي القبض عليهم ..
قال الشاب :
ـ أتمنى ألا تصدق وعود الأميركيين وأقوالهم ، وألا تعتمد إلا على خيارك ..
فوجئ بشار بقول الشاب .. قال :
ـ لم أفهم شيئا ..
ـ إنني يا سيدي متعاطف معك ، وسمعت الكثير عن عذاباتك ، وأشعر أنك تذوي انتظارا أو توقعا .. هذا ما أعنيه ..
ـ ومن في هذه المخيمات لا ينتظر خلاصا ؟!
ـ الانتظار في حالتك تدمير للجسد والروح ..
ـ ماذا تقترح ؟
ـ عفوا .. لست في موقع من يوجه النصائح إلى رجل مرموق مثلك ، ما رأيك بالسخرية منهم ؟
ـ اقتراح معقول ، ولكن قل لي أتقتل السخرية تأثيرات الانتظار ؟
ـ إنها تبطل سمومها .. تقاومها ..

ابتسم بشار وهو يقترب من الخيمة ، قال للشاب :
ـ لم أصدق يوما حكاية تسليم المدفع والبحث عن مكافأة ..
ـ إنها طريقة في السخرية والمقاومة ، والحقيقة أننا قصفنا مواقعهم بالمدفع ذاته .. هل تلومني على ذلك ؟
قال بشار وهو يدخل الخيمة :
ـ لنا حديث آخر ..

* * *

تلقت الخاتون انتصار زيارات شبه منتظمة من الأميركيين تحت غطاء رغبتهم في إقامة علاقات طيبة مع الشخصيات المؤثرة التي تمارس أدوارا بين الناس ..
تطورت الزيارات إلى دعوات وسهرات ولقاءات ، أرضت غرور انتصار وتكوينها وعقدها أيضا ..
أخبار ومعلومات
إشاعات ومفارقات
تدقيق حوادث
طلبات خاصة
مشغل يصر الأميركيون على ادامته ، ويحرصون على طابعه التلقائي الحر ، ويجنون فوائده بما يضئ النقاط المعتمة في برنامجهم ..
مع كل زيارة أو سهرة تنفتح السيارات الأميركية لتنقل إلى الدارة هدايا ومواد غذائية وأجهزة كهربائية ، توضع تحت تصرف الخاتون لدعم مسيرتها الخيرية ..
قادت انتصار عصابتها لتقديم معلومات وكشف حوادث وتحديد بؤر المقاومة وطريقة عملها ، وقدمت النتائج والخلاصات إلى أصدقائها الجدد الذين يستقبلون منجزها بأعين لامعة وضحكات تشجيع ووعود لا نهاية لها ..
أصبح سلاح أفراد العصابة شرعيا ، ويحملون هويات أصدرها القائد العسكري الأميركي ، وأصبح للخاتون حراس يحملون سلاحا أمام بوابة دارتها ..
مئات الطلبات أنجزتها الخاتون
فأصبحت دارتها قبلة لكل ذي حاجة ..
بلا أسباب أو مسوغات تذكرت انتصار في ليلة خريفية جمعتها مع ضباط ومجندات ، تذكرت بشارا ، فشعرت بأسف قوامه استعادتها لأيام السجن ومعرفتها باستمرار معاناة

بشار ..
انتحت بكبير الضباط جانبا ، وطلبت من المترجمة مساعدتها ، قالت : إنها تحمل إليه اليوم طلبا شخصيا عن رجل يهمها أمره كثيرا ، وشرحت ظروف معرفتها ببشار ، وقضية الاختطاف التي تعرضت لها ابنته وصولا إلى إلقاء القبض عليه في دارتها ، وأكدت للضابط أن مرور أشهر على اعتقاله ، وهي واثقة من براءته ، يوحي بأن القائمين على أمر المعتقلين غير جادين في تعاملهم معهم أو أنهم غير كفوئين ، وطلبت منه التدخل لإنقاذ بشار ، وأصرت أن خدمة من هذا النوع ستترك تأثيرا كبيرا في نفسها ..

قال الضابط :
ـ حسبا ، كوني مطمئنة ..
والتفت إلى المترجمة ، وطلب منها كتابة اسم المعتقل وتاريخ اعتقاله وبعض المعلومات الأخرى عنه ..
قبل انتهاء الدعوة ، ومغادرة الضيوف ، أكد الضابط من جديد أنه سيبلغها بالنبأ السعيد ..
استدعت انتصار في اليوم التالي أبا ستار ، وطلبت منه مرافقتها إلى بيت أهل بشار ..
هناك ، تعجبت انتصار كثيرا وهي تنظر إلى وجه أمل ، وتتأمل جمالها، كيف يمكن أن تتحمل عذابات لا تستحقها .. همست في أذنها بأن أباها سيخرج قريبا ..
توهج وجه أمل ، فاحتضنت الخاتون وهي تقول بأن ذلك سيكون أجمل هدية تتلقاها في حياتها ..
كانت نسرين تراقب انتصارا وتقارن بين المعلومات التي سمعتها عنها وبين لطفها ورقتها وطريقة تعاملها مع ابنتها ..
قالت نسرين :
ـ عندما يخرج بشار سنعود إلى باريس على الفور ، فأنا المسؤولة عن كل ما جرى له ولابنتي ..

أجابت انتصار :
ـ لا يصح إطلاق الاتهامات ، ولا يجوز أن نتهم أنفسنا في قضية عاكسنا فيها القدر أو الظروف .. إنها محنة وأنا واثقة من قدرتكم جميعا على تخطيها ..
ودار بين المرأتين حديث ودي انتهى بتبادل القبل مع وعد من انتصار بإقامة حفلة كبيرة حين مجيء بشار ..
بعد خمسة أيام من زيارة الخاتون لنسرين وأمل ، وبعد ستة أيام من وعد الضابط ،

**أطلق سراح بشار ، ودخل البيت ، فالتهب الجميع حماسا وفرحا وبكاءً وزغاريد ..**

*　　*　　*

**ما أن شاع خبر إطلاق سراح بشار حتى امتلأ البيت بالأهل والأقرباء والمعارف والأصدقاء ، وامتلأ أيضا بالمسؤولين الذين قصدهم للمساعدة في قضية ابنته ..**
**قصص وحوادث وتعليقات وآراء وتوقعات تكفي لتفسد أكثر العقول خبرة وتنظيما ..**
**علق أخوه محمد :**
**ـ إنهم يجدون العذر لحيرة أميركا ..**
**وخلال ثلاثة أيام من تاريخ وصوله إلى البيت ، كانت سيارة نقل تقف عند الساعة الثانية عشرة ظهرا أمام باب البيت لتنزل ( صواني ) الطعام الفاخر والفاكهة والمشروبات مع رسول يكرر الكلمات نفسها : إنها تحية من الخاتون انتصار ..**
**في اليوم الرابع ، قالت نسرين إنها تشعر أن الخاتون كانت وراء إطلاق سراحه ، وهي تستحق أن نقوم بزيارتها وشكرها ..**
**تبادل بشار ومحمد النظرات في الوقت الذي وصل رسول يحمل رسالة من الخاتون تتضمن دعوة العائلة إلى دارتها مساء اليوم نفسه ..**
**أبلغ بشار موافقته للرسول فانصرف ..**
**قال لزوجته :**
**ـ كأنك كنت معها على موجة واحدة ..**
**ـ إنها تتصرف بكرم ولباقة ..**
**مساءً ، في حديقة الخاتون العامرة ، كان الجو احتفاليا .. انطلقت فيه الضحكات والتعليقات الساخرة .. قال بشار :**
**ـ أرجو ألا نفاجأ بدخول الأميركيين لاعتقالنا مجددا ..**
**ما أن أكمل كلامه ، وقبل أن يتاح لانتصار الرد ، حتى توقفت سيارات عسكرية أميركية في مرآب الدارة ، ونزل ضباط ومجندات ومترجمون ، قالت انتصار :**
**ـ لقد وصلوا ..**
**وانطلقت ضاحكة ..**
**على الرغم من أن ضحكة انتصار بعثت على الراحة ، لكن بشارا شعر أن تيارا كهربائيا ضرب عموده الفقري .. لقد علمته الأيام والأشهر الماضية أن مساحة التوقع مفتوحة لاستقبال أي شيء .. تقدم كبير الضباط منه ، انحنى وقال إنه سعيد جدا أن يلتقي**

بشخصية كبيرة تعرضت إلى ظروف صعبة واستطاعت أن تقهرها ..
صافحه بشار دون تعليق ..قالت انتصار إن لصديقها الأميركي الفضل في تصحيح الأمر وإطلاق سراحه ..
شعر أن صورة جديدة تحتل رأسه ، فقال :
ـ ليس علي إلا أن أشكره ، وأثمن دوره في إنهاء عذاب مواطن بريء ..
قال الضابط :
ـ الحقيقة أن الدور الحاسم هو للخاتون التي نبهتني لوجود حالة لا يمكن أن نسمح باستمرارها ، والحق أقول إنك رجل معروف حتى أن صديقي كاستنر أخبرني بأنه يعرفك وهو يأسف لما حل بك ويتمنى أن يزورك ..
قال بشار :
ـ أكرر شكري لك وللخاتون ، وأنا مسرور أن تتاح لي فرصة التعرف بمن قدم مساعدة حقيقية لي ..
تعمد بشار إهمال أية إشارة إلى كاستنر ..
قال الضابط :
ـ إنني أبحث عن الصغيرة التي تحملت قسوة العصابات ، وتحملت رصاص قواتنا الطائش أيضا ..
قادته انتصار إلى أمل .. صافحها وأخبرها أن اسمه جون ريد وأنه معجب بقدرتها وصمودها ، وطلب من أحد المرافقين جلب هديتها من السيارة ..
إذاً ، الدعوة منظمة ومتفق عليها .. أي جديد في علاقة انتصار بهم ؟ وماذا يريدون ؟
قدم الضابط علبة كبيرة إلى أمل التي تناولتها وهي تبتسم بعذوبة ..
حديث عام .. تعليقات تحاول أن تكون خفيفة الظل .. عشاء فاخر احتل موائد ضخمة ..
بعد العشاء , انفردت انتصار به ، وسألته عن مشاريعه القادمة ..
أخبرها أنه عاجز عن التفكير ، لكنه سيسافر إلى فرنسا للراحة والعلاج ، ولا يعرف متى سيعود ..
سألت :
ـ وماذا عن البيت ؟
ـ ليست لدي رغبة في إصلاحه ، وقد أفكر في بيعه لأنني بحاجة إلى ثمنه ..
ـ سأشتريه أنا ..
ـ إنه هدية لك ، لقد فعلت الكثير ..
ـ شكرا ، ولكن ليس هذا ما أعنيه ، سأرسل غدا في طلب خبراء في العقار لتقدير ثمنه ، وسيكون المبلغ جاهزا مع إضافات إن شئت في الوقت الذي تريد ..

ـ لا أعرف كيف أتعامل مع كرمك وتعاطفك ، وأرجو أن تكملي فضلك وتجيبيني عن أسئلة تدور في ذهني ..

ابتسمت انتصار بمكر ، فتشجع وسأل :

ـ ما هي علاقتك بالمجندة جاكلين ؟ و كيف تم اقتحام الدارة ؟ و كيف خرجت من المعتقل ؟

ضحكت انتصار وكأنها سمعت طرفة ، ثم قالت بصوت منخفض :

ـ ليست لي علاقة باختطاف المجندة ، لكنني أعرف مختطفيها ، وقدمت لهم خدمة ، وهم الرجال أنفسهم الذين استطاعوا الوصول إلى أمل ، وأقول حول اقتحام الدارة إنني للحظات شككت بك ، ولكنني أبعدت الخاطر ، وعرفت فيما بعد أن إحدى الخادمات ثرثرت دون قصد أمام ابن أختها الذي أبلغ مسؤولا في حزب نسيت اسمه ، وكان ما كان .. أما مسألة إطلاق سراحي فالفضل يعود لرجالي الذين اختطفوا أميركيين وعقدوا صفقة قادت إلى خروجي من المعتقل ..

ـ كيف اتصلت بهم ؟

ـ لم اتصل بأحد ، هم يعرفون كيف يتصرفون ..

وأطلقت ضحكة عالية ، ثم قالت :

ـ إجاباتي لا يعرفها أحد ، فهي لك وحدك ..

* * *

# الفصل الحادي عشر

عاد بشار إلى باريس ..
جلطات في القلب ..
ندبات في الروح ..
عذابات في الأحلام ..
عادت نسرين ..
حماس مقتول ..
رؤية مضببة ..
وبحث عن سلام ..
عادت أمل ..
كسر في الذراع ..
كسر في الساق ..
روح مجروحة ..

أهذا ما تفعله سبعة أشهر على أرض الوطن ..

تجربة تحالفت فيها الظروف والأحداث ، الخير والشر ، الماضي والحاضر على تقديم لوحة مشوهة تدمي القلب والروح ..

( تراب الأغاني على جبهتي وانكسار السماء )

كلمات علقت بذهن بشار من قصيدة قديمة ، رددها ليصف بها حصيلة السفرة ..

ما الذي بقي منه إذن ؟
معارض فقد معارضته ..
وبقايا شوق ذبحته القسوة ..
وحلم يرتعش ..

تذكر سؤاله الأخير لأخيه محمد :

ـ هل كان ضروريا كل ذلك لأدرك صدق إحساسك حين كنت تكرر معارضتك لعودتي ؟!

حينها ابتسم محمد بحزن وهو يقول :

ـ ثمة ثمن يضطر الإنسان إلى دفعه دائما ..

لمن دفع ؟
ومن استفاد من آلامه ؟
الخاتون / العصابات / الأميركيون / الناس / المقاومة /

* * *

كان فرح خالد حقيقيا ..
بكى وتصرف كطفل ، ليؤكد عمق محبته ، وصفاء روحه التي آلمها ما حدث ..
جلس على الأرض في مواجهة العائلة جميعا ، وأخذ يلقي السؤال تلو السؤال ، ويستمع ، فيصبح وجهه خريطة معبرة عن انفعالات صادقة ..
في جلسته تلك ، كان يزحف تدريجيا باتجاه بشار الجالس على مقعد مريح في الصالة .. زحف حتى لامست أصابعه ركبتي صديقه الذي فاض بالحديث عن ذكريات الاعتقال ..
وضع خالد رأسه على الركبتين ، وأخذ يبكي في نحيب شاركته فيه نسرين وأمل ..
ـ لماذا يحدث هذا لك ؟
إنه يحدث لعشرات الآلاف من الناس الأبرياء .. يحدث بلا معايير ولا قاعدة ..
فجأة انتابته حماسة ، فقال إن المهم الآن هو إجراء فحوصات طبية دقيقة وشاملة لك وللعائلة ..
سأل بشار :
ـ وماذا عن الروح ؟
ـ سنريحها بالنكات والضحك ..
ـ والآخرون ؟
ـ لا تنتظر أن يسعد مواطن في بلد محتل .. تلك قاعدة قديمة حديثة ..
انسحبت نسرين وأمل لإعداد الغداء ، فسأل بشار :
ـ هل من أخبار عن إيزابيل ؟
ـ التقيت بها مرتين ، وحدثتها عن مأساتك ، فتحولت هي إلى مأساة أمامي ، هل تعلم إنها أرادت السفر إلى العراق للسؤال عنك ؟
ـ حمدا لله أن ذلك لم يحصل ..
ـ إنها مكسورة بحق ، وهي تستحق زيارة عاجلة لترميم معنوياتها ..
ـ ماذا عن اللوحة المفقودة ؟
ـ سألتها مرتين ، لكنها التزمت الصمت ، فلم أحاول الضغط عليها ..
ـ ماذا تتوقع ؟
ـ إما أن تكون قد اختفت نهائيا ولا أمل في الوصول إليها ، أو أنها وجدتها محطمة .. هذا ما أتوقعه ..
ـ هذا مؤسف ..
ـ إنه توقع ، أتمنى ألا يكون صحيحا ..

* * *

إيزابيل ..
أطبقت راحتيها ، وركعت على الأرض ، كأنها تقوم بطقس هندي مقدس ..
نهضت بهدوء ، وبحركة مسرحية أجلست ( بشار ) على مقعد في الصالة ، وجلست شبه ساجدة على الأرض أمامه ..
امتدت يداها، ففتحت رباط حذائه ، ثم نزعت جوربيه ، وألبسته خفا قماشيا ..
أخذت تلعق جبهته .. حاول إيقافها ، فأمسكت بيديه ووضعتهما على الفخذين ، وأشارت عليه بالصمت ..
فتحت أزرار ملابسه ، وبدأت بنزعها قطعة إثر أخرى .. وبين حين وآخر تلعق أصابعه أو راحة يده أو ذقنه ..
استمرت اللعبة ..
ـ هل جننت ؟!
ـ أرجوك ، أيها الحبيب ، دعنا نتعلم من الحيوانات درسا .. هل رأيت حيوانا يقبل صاحبه ؟ إنه يلعقه وينظفه ويهتم به .. أرجوك وفر محنة الكلام ..
لم تبق على جسم بشار سوى ملابسه الداخلية .. اقتادته إلى الحمام ، حيث نزعت ما تبقى ، وأنزلته إلى المغطس ..
بملابسها نزلت معه ، وبدأت بغسل وتدليك كل جزء من أجزاء جسده ..
شعر بشار وكأنها تفي بنذر قطعته على نفسها ، ولكن تلك طقوس ومعايير شرقية ، فمتى كان لفتاة أوربية متحررة معايير مقدسة تحتكم إليها وتمارسها ..؟
كل إصبع من أصابعه .. كل مساحة أو ثنية أو عضلة أو عظمة أو شعرة كانت تأخذ حصتها من اهتمام وتنظيف وتدليك ..
سمعها تقول :
ـ آه ، أيتها الفتاة الحمقاء الطائشة حممي الحبيب القادم من الحرب ..
لم يعرف على وجه التحديد إن كانت تقرأ نصا محفوظا أو أنها كانت تخاطب نفسها بتلقائية اللحظة والموقف ..
وجد أن الصمت هدية ثمينة تعفوه من كلام مكرر وحزن مؤكد ..
وعلى الرغم من كل ما فعلت في المغطس ، لم يشعر بأية إثارة جنسية ، كانت حركتها وتعابير وجهها ونظراتها بعيدة كل البعد عن إيحاء جنسي محتمل ..
أنجزت طقسها .. دثرته بمناشف معطرة ، وقادته إلى الصالة ليجلس على المقعد نفسه ، ويمد ساقيه على منضدة صغيرة وضعت أمام المقعد..
أحكمت الدثار حوله ، وأخذت تتفحص وضعه ، ثم غادرت إلى المطبخ ..
استسلام مريح ، وسكون دون تعسف ، ورعاية لا يطعنها هدف .. إنها من حقه ، فلماذا يستكثرها على نفسه ، ويحاول قتلها بالتوضيح والإجابة عن تساؤلات ؟!
فكر :

نستنكر الحزن الذي يزرعه الآخرون في طريقنا ، ونبحث عن الأحزان لأنفسنا ، ونقتل لحظة الفرح ونحن نحاكم ندرتها ..
خرجت تحمل أطباق الطعام .. كانت روائحها تثير متعة خاصة في نفسه . فتحت قنينة خمر ، وسكبت السائل الأحمر في كأس ، وأخذت تسقيه ببطء وهي تطوق رأسه ، وتضعه على نهدها الأيسر ..
الطبق الأول يحوي حلزونات بحرية معبأة بالثوم الأخضر والبهارات والزبد ، ومشوية في الفرن ..
كانت تخرج قطعة اللحم بملقط خاص ، وتضعها في فمه بكثير من الدقة والاهتمام .. حانت منه التفاتة ثم حركة ، وضعت إصبعها على فمه ، وقالت وكأنها تخاطب نفسها :
ـ حمميه جيدا ، وأطعميه ، وحاذري الأكل معه ..
أهي نصائح توراتية ، أم النصائح التي تتلى على جواري القصور ؟
أدرك أنه يلاحق فرحه بالأسئلة ، فصمت واستسلم ..
قطعة إثر أخرى أطعمته الطبق البحري بكامله ، ثم أخذت تسقيه ، ومن حين لآخر تلعق شفتيه ..
أبعدت طبق البحريات جانبا ، وبدأت تقطع شرائح من لحم العجل ، وتلتقطها بالشوكة ، وعبر حركة جميلة ورشيقة من المعصم تضع القطعة في فمه ..
ثمة حركة تتوزع على حمل كأس الخمر ، والتقاط اللحم ، وإطعام بشار المتدثر بمناشف الحمام ..
مع الدبيب الأول لفعل الخمر ..
ومع اكتمال الحركة وجمالها ..
ومع تعتق الشعور بالاهتمام والأمن ..
تفتحت في نفسه رغبة في سماع لحن راقص أو أغنية تتفجر كلماتها جمالا ..
نظر إليها ، ففهمت ..
تحقق إنجاز تدمير وكالة اللغة للتعبير عن الأشياء والرغبات ..
قرر أن يسلم نفسه للموسيقى .. لموجها الذي ينخر الزمن ، ويتلاطم مع المكان ..
أصبح مجرد طفل يمارس طفولته .. يدرب حواسه .. يمنح عقله الصغير ما يكفيه ليعلن غروره متناسيا أنه ليس أكثر من بركة آسنة لولا روافد الحواس ..
الطفولة لا تموت .. إنها تمنح التنازلات لكي يشعر الآخرون برجولتهم ، وهي من العمق ما يتيح لها أن تراوغ الرجل الذي تقمصته ..
معرفة تشبه الخسارة ..
زمن يتداخل مع المكان ..
لقاء مكشوف ، وصراع خفي ..

أدرك في لحظة جديدة أن تاريخا جديدا يتشكل في دواخله .. يتصارع مع المكان وهو في صراعه يمنح وسيلة أخرى للمعرفة ميزتها أنها تصفع غرور العقل وتطعن منطقه البؤس ..
نغمات لها القدرة على تكوير التاريخ الشخص له ، ورميه به ، فيسقط في حيرة مملوءة بالهدوء البارد ..
أهو له أم عليه أن يرد ؟
أيبحث عن وسيلة للتعامل أم يطلق تسميات تحمل خديعة الفهم ؟
نعم ، كان حاذقا بما يكفي ليستمر في هدوئه وتأمله ..أن يكون قادرا على وعي اللحظة دون استنفادها بمحاولات سقيمة للوصف أو الشرح ..
نغمات .. موجات تعلو وتنخفض ، ثم تتدفق مسرعة بما يكفي لابتلاع زمن أسبق ، وصوت أسبق ، وما إن شعر أن موجة الأنغام تحاصره ، وتلتف حوله حتى أحس إنها تقدم خلاصة ما .. خلاصة أصوات و تاريخ وأحزان ..
ابتسم لخاطرة سريعة مرت به وكأنها محاولة لكشف بلادة سابقة ..
قد تكون الجغرافية أثبت من التاريخ ، لكن التاريخ يمنح الجغرافية معنى إنسانيا .. يمنحها العمق ..
لم يكن قادرا على منح فهم يتجاوز وضعه ، لولا هذه النغمات التي لا تقول أي شيء ، سوى تهديم وسائل معرفته .. سوى محاصرة العقل المغرور ، وإرغامه على مزيد من الادعاء لإخفاء الفشل ..

متى كانت للموسيقى مثل هذه القدرة .. لم يكن ينظر إليها بما يتجاوز كونها إيقاعات لها فعل بسمة في وجه رجل متعب ، أو كأس ماء في ظهيرة تموزية .. يمكن للموسيقى أن تشكل متعة .. يمكن لها أن تبتعد أو تقترب ، أما أن تكون فكرة مقاتلة .. رأس سهم نافذ .. طاقة تعرية .. فهذا أكبر بكثير مما كان الرجل يحتمله أو يفكر فيه ..
ما أن استنفدته موجة جديدة من تأوهات الأوتار وصوت تحطم سجنها ، حتى مرت به فكرة أخرى تشبه حلما يهرب كلما حاول الإمساك به .. أدرك إن من يفكر بعمق أكبر من استيعاب اللحظة ، فإنه سيكون على خطأ .. وهو في عجزه وهدوئه أحس أن للحزن ما يبرره أما الهدوء فلأنه بلا مبرر ، اتكأ على الحزن ، ورسم على وجهه براءة مخفيا عبرها قسوته التي لا تحتمل ، وأحس أيضا أن رموز الأصوات وإيقاعاتها لم تكن سوى صوت قلبه .. إنها صوت روحه الهائمة في بحثها عن المعنى في نير الجغرافية وموج التاريخ الذي لا يقهر ..
ـ أيتها الحمقاء الطائشة ..

حمميه جيدا ، وأطعميه ، وحاذري الأكل معه ، ودعيه يكتشف نجمات ليلك ، وغزلان براريك ، ويضع رأسه على وسادة نهديك ، فالحبيب عائد من حرب ..

**يلاحق النجوم .. نجمة .. نجمة ..**
**ويصطاد الغزلان .. غزالة .. غزالة ..**
**ويكتشف دروبا ومسالك ما حلم بجمالها يوما ..**
**أصبحت السماء قريبة صافية**
**نفضت الأغاني تراب معانيها**
**تمايلت الأشجار**
**وانفجرت الألوان في غابة سحرها**
**جمال من غير موعد**
**وشجاعة لا تنتظر شهودا**
**وأسرار غير معروضة للبيع**
**وكتمان شفاف يظهر لآلئه وأحجاره الكريمة**
**انهمر الليل ، وسقطت ذراته المتوهجة لتغطي جسدين يبحثان بجد عن لغة لم يقتلها الاستعمال ، ودلالات حرة لم يدجنها تفكير متعسف ..**
**تحت دثار الليل سمعها تقول :**
**- لم تسألني عن اللوحة ؟**
**- إني أعيش دلالاتها ..**
**أطبقت عينيها ..**
**أطبق عينيه ..**
**وكان الحلم ينتظر ..**

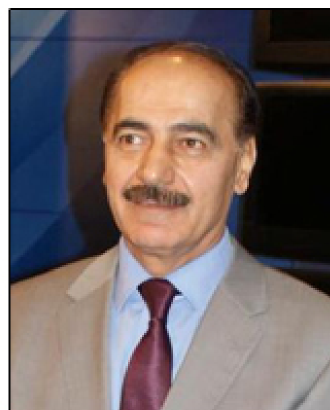
* * *

**انتهت الروايـــة**

# بعض الكتاب والنقاد والأدباء الذين تناولوا تجربة
## أمجد توفيق الإبداعية
## وكتبوا عن رواياته وقصصه

- باسم عبد الحميد حمودي
- د. شجاع العاني
- د. بشرى البستاني
- سليمان البكري
- د. قيس الجنابي
- د. عبد المطلب محمود
- د. عمر الطالب
- د. نجمان ياسين
- خضير ميري
- عباس لطيف
- حسب الله يحيى
- جاسم عاصي
- عبد الستار ناصر
- كليزار أنور
- د. حسين سرمك
- د. باهر بطي
- د. كامل خورشيد
- د. محمد عطاء الله
- سليم السامرائي
- د. خالد علي مصطفى
- عبد الرحمن الربيعي

- قاسم عبد الأمير عجام
- عبد المنعم حمندي
- هاتف الثلج
- عباس عبد جاسم
- فاضل مشعل
- ذكرى محمد نادر
- حمدي مخلف
- د. وليد الزبيدي
- محسن ناصر
- عبد الاله عبد الرزاق
- حسن عبد الحميد
- رشيد هارون
- ابراهيم سبتي
- محمد الأحمد
- فوزي كريم
- عبد الجبار عباس
- د. علي جواد الطاهر
- معد الجبوري
- نصير النهر
- ذيب حماد
- فاضل الكناني
- يوسف نمر ذياب
- وارد بدر السالم
- مؤيد الياس بكر
- شفاء العمري
- هيثم بردى
- د. هاني عاشور
- حامد شهاب
- سعدون السباهي
- علي خيون
- مؤيد البصام



# الظلال الطويلة

## أمجد توفيق

### صدر للمؤلف

- الثلج .. الثلج / مجموعة قصصية
- الجبل الأبيض / مجموعة قصصية
- برج المطر / رواية
- قلعة تارا / مجموعة قصصية
- طفولة جبل / رواية
- موسيقى الحواس والغرائز / مجموعة قصصية
- الطيور الحرة / رواية
- الظلال الطويلة / رواية
- نحل القلم عسل الثقافة / كتاب نقدي
- كتاب القصة / مختارات
- الخطأ الذهبي / مجموعة قصصية